

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
مديرية التأليف والترجمة

وداعاً يا دمشق

الفة الادلبي

السلسلة القصصية رقم (٥)

نشر وتوزيع مكتبة اطلس
دمشق

مطبعة خالد بن الوليد
دمشق هاتف : ١٩٣٢٨

الاهداء

الصبايا الصغيرات حفيداتي :

ربحة و مارية و زينب و نادية ورفيقاتهن

هذه القصص و أكثر حوادثها جرت في هذا
القطاع الصغير من وطنكن العربي الكبير ، اهديها
اليكن وأنتن من بنات الجيل القادم الذي يجدر به أن
لا يتناسى صور الماضي ، ومعالمه القديمة ، وقد
اوشكت ان تأتي عليها عوامل التمدن الحديث .
و أشهد انكن لكنتن من الحافزات لي على رسم هذه
الصور ذات الطابع الخاص ، وسرد القصص عنها .
و ذلك لأني أردت لكن أن ترين فيها بعض ما يرمز اليه
الى الحياة التي عاشتها جداتكن والتي لم ترينها من قبل
وستجدن في ذلك كله شيئاً من المتعة والسلوى .

المؤلف

٥/٢/١٩٦٢

الرقية المجربة

قالت لها جارتها تهدىء روعها وتخفف عنها :

مالك تعظمين الأمور ؟ أهي المرة الاولى من نوعها ؟ ياطالما تزوج الرجال على نسائهم ! . . وتمسح أم صافي دموعها بكمها وتقول :

لو سمعت هـذا الخبر من غيرك لما صدقته ولقلت حكاية غدر ومكر ! . . أيعملها معي أبو صافي بعد خمس وعشرين سنة ؟!.

وتبتسم خدوج ـ جارتها ـ استهزاء وتقول :

المؤمنة بالرجال كحاملة الماء بالغربال ! .. اسمعي مني ولا تضيعي الوقت ، وتعالي معي لآخذك الي أم زكي عساها تعطيك رقية تستطيعين بها ان تتداركي الامر قبل وقوعه .

وتتبرم أم صافي وتقول بمرارة :

تقولين أن عرسه الليلة . . فماذا تستطيع عمله أم زكي ببضع ساعات ؟

فتهز خدوج رأسها اعجابا ، وتقول :

أم زكي ! هي أم العجائب ، ياما ابطلت زيجات بساعات معدودة ، وياما جمعت بين ضدين ، وياما فرقت بين الفين . . ولكن هل معك ليرة ذهبية ؟ فهي لا تقوم بعمل ما لم تقبض الثمن سلفاً ، وسعرها محدود ! ليرة ذهبية لكل عمل تقوم به .

وتتردد أم صافي قليلاً ثم تجرض بريقها وتقول :

معي ليرة ذهبية . . .

وتسرع الى ألبستها ، فترتديها على عجل ، ثم تفتح صندوقها ، وتخرج منه الليرة الذهبية وتشد عليها أصابعها بحنان . . .

إن لهـذه الليرة بالذات تاريخاً حافلاً بالذكريات الحلوة عنـد أم صافي ، وكانت قد آلت على نفسها ان تحتفظ بها لذكريات الحلوة ، واليمن والبركة . فقد مرت عليها أيام عسر وضيق ولكنها لم تفكر أبداً ان تفرط بها . . . فكانت كلما رتبت صندوقها تخرج هـــذه العلبة من مخبئها ، ثم تفتحها فاذا رأت ليرتها تهللت أساريرها ، وأشرق وجهها ، ثم يشط بها الخيال ، وتطوح الذكرى الى خمس وعشرين سنة خلت ، الى اليوم الذي دخلت فيه هـــذا البيت عروسا ، وكثيراً ما كانت تحول عينيها عن الليرة الى صحن الدار فتراها بعين الخيال كما رأتها في ذلك اليوم بأبهى زينة ، تموج بالمدعوات ، وقـد تدلت من شجيرات الليمون والنارنج التي تحف بالدار فوانيس مضاءة . وتذكر جيداً عندما أطلت من باب الدهليز كيف ناولتها احدى قريباتها خميرة من عجين على

ورقة تين خضراء ،وطلبت منها أن تلزقها على الجدار ، ولمـــــا استقرت الخميرة على الجدار ابتسم أهلها ، وهنأ بعضهم بعضاً ، لأن هذا يدل على أن ابنتهم ستستقر في بيت زوجها وستكون حياتها محفوفـة بالسعادة والهناء . وتذكر عندما دخلت صحن الدار كيف استقبلها فوج من الصبايا كلهن من أهل العريس بزغرودة حلوة مازالت تذكر كلماتهـا الى الآن :

حصنتك بياسين،
يازهرة البساتين ،
يا ورد وسوسن ،
على رؤوس السلاطين ،

ويرد عليهن فوج آخر من الصبايا بزغرودة أشد حماسة تبلغ لعلعتها عنان السماء :

لا أنت طويلة شامطـــــة ،
ولا قصيرة هابطـــــة ،
ويا حـــــلاوة سكرية ،
طبخناهـــــا البارحة ،

ثم تأتي أم العريس فتأخذ بيدها وتجلسها على سدة هيئت لها في صدر الليوان . وراحت هي تغض طرفها ما أمكنها ، حتى بدت و كأنها مغمضة العينين . لقد قيل لها : ان العروس الوقحة هي التي تحملق بالمدعوين.

ثم تذكر كيف راحت تسترق النظر الى الدار التي رأتها لأول مرة ، وستأويها مدى العمر . . . فأحبتها . . احبت اشجارها الوارفة، بحرتها التي ترقص في وسطها نافورة ثرثارة ، ليوانها ذا القوس العالي ، شجرة الليلك التي كأنها تزينت لحفلة العرس ففتحت ازهارهـا مرة واحدة ، وتدلت الازهار عناقيد بنفسجية تداعب رؤوس المارات من تحتها ، فترشق زهرة هنا ، وزهرة هناك ، الياسمينة التي تسلقت الشبابيك والأبواب كأنها تسترق اسرار المخادع ، الياسمين العراتلي الذي نشر عطره فطغى على كل عطر فواح .

وتتنبه من شرودها عندما تقدم منها عشرون صبية من العذارى، هن نخبة هذا الجمع كن يحملن بأيديهن شموعاً مزركشة مضاءة ، ثم يأخذنها بينهن ، ويتحلقن حول هذه البحرة التي تراها امامها الآن ، ثم يسرن متمهلات متمايلات وهن يغنين لها أغنية العروس الخالدة :

اسم الله ، اسم الله يازينـــة ،
ياورد فتح في الجنينـــة ،

كانت بينهن كواسطة العقـــد ، تزهو بجمالها الناضر وبشعرها الأشقر الطويل الذي يكاد يمس ركبتيها وقد زينته لها الماشطة بخيوط من التيل المذهب، ونثرته على كتفيها ، ووضعت لها على رأسها غطاءً طويلا شفافاً من التول الابيض ثبتته على مفرقها باكليـــل من زهر الليمون ، رمز الطهارة والبراءة .

واذا هي تسمع ضجة وجلبة ، فتدرك ان العريس قد وصل ، وتتناهى الى سمعها أهازيج الرجال وهتافهم وهم يقولون :

نير وأقدر ،

وعادنا ،

وهيه ،

وتذكر كيف فسرت لها ذات مرة عجوز من أقربائها معنى هذه الاهزوجة اذ قالت :

نير واقدر : يقولون للعريس : الزواج نير سنضعه في ، رقبتك فان كنت رجلا حقا قدرت على حمله .

وعادنا : يقصدون بها أن عادنا نحن صحابك معشر العزاب ، وأفرغ لبيتك وزوجك ، وان استطعت ذلك سنهتف لك قائلين :

هيه .

وتبتسم في خفر لهذه المعاني الحلوة . واذا زغاريد النساء تعلو مرة ثانية ، وتنظر صوب الباب فترى رجلها لأول مرة وهو يدخل من باب الدهليز يحف به أهله من كل جانب ، فتغض بصرها ما أمكنها ، ويخفق قلبها وتقترب منها صبية من قريباتها توشوشها قائلة :

اياك ان تكلميه قبل ان يعطيك ثمن شعرك كما هي العادة .

فاذا صار امامها وجاءت الماشطة ووضعت يدها بيده شعرت باضطراب شديد ، فكان صدرها يعلو ويهبط بسرعة عجيبة ، ومازالت

الى الآن تتساءل عن سبب هذا الاضطراب، اكان الخوف ؟ امالفرح؟ ام الرهبة ؟ ام ماذا ؟.

ثم تدخل معه هذا المخدع القائم على يمين الليوان ، ويغلق عليها الباب ، فتقعد الى جانبه جامدة لا تتحرك كأنها صنم من حجر . وكان هو يداعب مسبحة في يده ، وتمر فترة صمت محرجة .. ثم يقترب منها ويأخذ يدها بين يديه . ويقول لها برقة وعذوبة تلك الجملة التقليدية التي كانت هي اول كلام يفاتح به الزوج زوجه :

انا واياك على الدهر ؟ أم أنت والدهر علي ؟ ؟ وتتذكر وصية قريبتها فتشيح وجهها عنه دلالا ، دون أن ترد عليه .

فيقول : آه لقد تذكرت ... ثم يأخـــذ خصلة من شعرها ويقبلها ويقول لها :

شعرك الذهبي شلة حرير . . يا روحي عليه ، لا يثمن الا بالذهب .. ويمد يده الى جيبه فيخرج هذه الليرة ذاتهـا ، ويضعها في يدها ، وتشد عليها اصابعها بحنان كما تشدها اليوم .

ومنذ تلك اللحظة آلت على نفسها ان تحتفظ بها للذكري الحلوة، ولليمن والبركة . ثم ترفع رأسها فتلتقي نظراتها لأول مرة ، وتقول له مخلصة صادقة :

انا واياك على الدهر .

وتتذكر أم صافي كم كانت بارة بعهدها .

كانت معه على الدهر خمسا وعشرين سنة كاملة كأحسن ماتكون الزوجة لزوجها حبا ووفاءً ورعاية . انجبت منه تسعة اولاد ، اربعة شباب مثل النخل ، خمس صبايا ، كل صبية مثل البدر . يا ويله ! هل نسي ذلك كله ؟!!..

يا للرجال ما أقبح غدرهم ؛ واقل اخلاصهم... منذ مات عمه بكري ، وورث عنه الطاحونة والبستان تغيرت كل احواله . اصبح دائم الشرود والعبوس ، كثير النزق ، يثور لأتفه الامور ، وينتحل أوهى الأعذار ليتغيب عن البيت . كان إذن يبيت أمراً . . . ما أغباها ! . . كانت ثقتها به عمياء ، فلم تساورها الشكوك والريب حتى وقعت الواقعة أو كادت ، وهي في غفلة من أمرها . . .

وتسلم قيادها الى جارتها خدوج التي تأخذها الى أم زكي ، وهناك تعطيها الليرة العزيزة الغالية ، وتتلقى عنها الرقية وتحفظها . .

وتوصيها ام زكي ان تصعد بمفردها بعد صلاة العشاء الى سطح بيتها فتطوف به سبعة أشواط وهي تردد الرقية سبع مرات .

وتعود الى بيتها وهي في شغل شاغل عما يحيط بها . لم تع شيئاً سوى انها فرطت بالليرة الغالية ذات التاريخ المجيد . . . في سبيل الرقية التي ستحول دون زواج أبي صافي . . وينكر أولادها وجومها واصفرارها ، ولكنها لم تشف لهم غليلا ، وآثرت الصمت حتى ترى النتيجة .

كانت كلها آذاناً صاغية ، فلما سمعت المؤذن يختم آذان العشاء، غافلت أولادها وصعدت الى السطح .

كانت ليلة ممطرة ، حالكة السواد ، شديدة الوحشة ، فاستولى عليها خوف مفاجيء لم تكن تنتظره أبداً ، وشعرت برهبة . . . ولكنها جمعت كل شجاعتها وابتدأت بالشوط الأول وهي تردد كما علمتها أم زكي :

بعثت لك هاني وماني وكبير الجن القهرماني .
طربوشه وردي ، وبابوجه جلدى
ليأتي بك الآن ، الآن
بأي حال ، بأي حال
من أي مكان ، من أي مكان
على عجل ، عجل ، عجل .

فاذا زوبعة شديدة تجتاح الجو ، فتلتمع البروق هنا وهناك ، وتزمجر الرعود ، وينهمر المطر حبالاً موصولة ، وتجمد أم صافي في مكانها كأنها سمرت تسميرا . وراحت تتراقص امام ناظريها أشباح من الجن بهيآت مفزعة ذات قرون وأذناب ، وتتناهى الى سمعها من بعيد أصوات موحشة منكرة كأنها عواء كلاب مسعورة ، أونعيق بوم . . .

ويشتد وجيف قلبها حتى تشعر كأنه سيقف عن الخفقان ، وراحت تسائل نفسها :

الا يصيب أبا صافي سوء من كبير الجن القهرماني ؟ ؟ ومن هاني وماني اللذين لاشك أنهما من أخبث بني الجن وأشدها مكراً ببني آدم !..

أبو صافي . . . زوجها الحبيب . . . أبو اولادها التسعة ، زين شباب الحـارة رغم سنيه الخمس والأربعين ، ترمي به الى التهلكة بيدها ، فيمسه عارض من الجن ، وتخسره الى الأبد ؟ !

لا ، لا ، أعوذ بالله من شر ما أقدمت عليه . . ليعش أبوصافي سليما معافى ، ولوكان متزوجاً من غيرها ، وعوضها على الله بالليرة الغالية، ولتدع أمرها الى الله .

وتبذل جهداً حتى تستطيع تحريـــك قدميها ، ثم تروح تتلمس طريقها في الظلام بخطىً مضطربة مرتبكة ، فتتعثر وتزل قدمهـا وتهوي من السطح إلى صحن الدار ! . . . وتتلقاها شجرة الليلك .

كانت الشجرة وفية الى تلك التي تعهدتها بالسقي والتشذيب خمساً وعشرين سنة كاملة ، فتكسر أغصانها تحتها ، وتسلمها الى الأرض برفق وحنان ما استطاعت الى ذلك سبيلا .

لم تمت ام صافي ، رغم ان الهوة كانت سحيقة المدى ، بل أصيبت برضوض وخدوش يسيرة . ويهب أولادها جميعهم مذعورين على صوت استغاثتها ، وفي طليعتهم ابنها البكر صافي الذي سارع ليحملها على ساعديه القويين ويضعها في فراشها ، ويسألها بلهفة :

ماذا دهاك ؟ أي عمل لك على السطح في مثل هذه الساعة من الليل؟

وتخجل ان تبوح لهم بسر الرقية فتكتفي بأن تقول باقتضاب :

أبوكم تزوج . . . . الليلة عرسه ! .

وتستدير العيون دهشة ، ويسود الجميع وجوم وسكون كالسكون الذي يسبق العاصفة ، ثم تهب العاصفة ، ويشتد اللغط ، ويتكلمون كلهم معاً فلم يفهم مما يقولون شيء . ثم يسترعي انتباههم أخوهم الكبير صافي ، الذي انفتل يرتدي ملابسه بسرعة وهو يرغي ويزبد ، ويبربر بكلام لا يبين ، وتقول له أخته الكبرى :

الى أين ، وأمك في مثل هذه الحالة ؟ .

ويجيبها بحدة :

اليه ، لآتيها به .

وتتمالك الأم نفسها وتقول :

تأتيني به ؟ ولم ؟ وهل تعرف أين هو الآن ؟

ويرد عليها :

انا أعرف أدبر شغلي . . . سآتيك به الآن ، من أي مكان بأي حال ، من الشرق ، من الغرب ، من تحت الأرض ، من السماء السابعة .

وتفغر الأم فمها دهشة وهي تتساءل في نفسها :

اهذا هو اذن كبير الجن القهرماني ؟ كان قائماً بين سمعها وبصرها ، ولم تلجأ اليه ، بل لجأت الى أم زكي حيث فرطت بالليرة الغالية . . . ثم تقول له :

لا ، لا ، يابني طوّل بالك . . . الله يرضى عليك ، ملائكة

السماء ترضى عليك ، أبوك رجل عنيـــد ، لاتصطدم معه ، شكوته لله . لاتعمل لنا فضيحة ، لاتصيرنا سيرة بفم الناس . . .

ويرد عليها بـــنزق :

صرنا سيرة وزيادة ! ! . ، ماذا تريدين اذن ؟ هو يتزوج ، وأنت تنتحرين ، ونحن نتفرج عليكما ؟ ! . . ثم يصفق الباب خلفه وينطلق .

ويشعر الجميع بارتياح عميق لـكلامه ، كأنه يعبر عما في صدورهم جميعاً ، لاسيما الأم ، فقد أحست بالاطمئنان يتسرب الى نفسها بعـد أن رأت ابنها صافي شابا قوياً ينتصر لها بهذه الحماسة ، وهذا الاندفاع .

وما هي الا برهة قليلة من الزمن حتى يعود صافي ومعه أبوه .

ماعرف أبو صافي الذل والمسكنة طول حياته كما عرفهما في تلك الساعة أمام زوجته التي تظاهرت بالاغماء ، وأمام أولاده التسعة الذين كانوا ينشجون حول فراش أمهم .

فـكان يتمتم بانكسار ذليل ، منكس الرأس :

لاحول ولاقوة الا بالله ، لاحول ولاقوة الا بالله العلي العظيم ،

النصيب ، نصيب ، الذي انكتب على الجبين لازم تشوفه العين .

إنا لله وإنا اليه راجعون .

ولـكن هـذه الكلمات ـــ على قدسيتها وبلاغتها ـــ ما كانت لترد عنه النظرات العاتبة . والكلمات الواخزة .

ويجد أن خير مايخرجه من هـــذا المأزق هو ان يأتي بالطبيب عساه يحتمي به ريثما تهدأ النفوس قليـــلاً .

ولما كان اليوم الثاني وقـد شاع في الحارة كلها خبر ماوقـع لأم صافي مع زوجها ، راح جيرانها ، وصاحباتها يفدون لعيادتها والاطمئنان عليها . ولكن أساريرها لم تتهلل وتنفرج الا لجارتها خدوج التي انحنت عليها ووشوشتها قائلة :

هاتي البشارة . . . رجعت المياه الى مجاريها ، وبطل زواج أبي صافي .

ألم أقل لك ان أم زكي أم العجايب ، ورقيتها المجربة لاتخطىء أبـــداً .

الحقد الكبير

ما كنت احسب ان تلك الذكرى المؤلمة ستظل قابعة في أعماق نفسي دائماً أبداً ، حية لاتموت مهما بعد بها العهد .. يثيرها مرأى كوب من الحليب ، مجرد كوب صغير من الغذاء الذي عافته نفسي منذ ما اصبح مرآه يبعث كوامن الاسى في قلبي .

كنت كلما وقع نظري عليه تمثل في خاطري أبو حامد بائع الحليب الجوال ، بقامته القميئة ، المائلة قليلاً على وعاء الحليب الكبير المعلق على كتفه ، وسرواله الازرق ، وقد شد عليه زناراً أحمر ، وارتدى فوقه ميتاناً مخططاً بالابيض والاسود ، وعينيه الصغيرتين اللامعتين تحت حاجبيه الكثيفين ، وصورته الحلوة وهو ينادي بنغمة مطوطة : حليب ، حليب .

كان الصوت يتناهى الي كل يوم وأنا قابع في فراشي تحت اللحاف فيصلني خافتا عميقا عندما يكون أبو حامد قد وصل الى أول حارتنا الطويلة المنحدرة من ذيل جبل قاسيون حتى حي الصالحية . ثم يبدأ الصوت يعلو ويعلو ، وعندما يصل ابو حامد أمام بيتنا تماماً كانت

ساعتنا العجوز المثبتة على حائط الليوان ، والتي وعت جيلين أو أكثر من أسرتنا تبدأ دقاتها الرتيبة ، فتدق ست دقات متتابعات وكأنهـا والحلاب على ميعاد لا يتخلفان عنه أبداً . فأهب عندئذ من فراشي يدفعني نشاط سن العاشرة الذي كنت فيه ، واهبط الدرج راكضاً فأثير ضجة قوية توقظ أهل البيت جميعاً ، ثم اتناول ابريق الحليب من المطبخ لأملأه من الحلاب . كانت هـــذه هي الوظيفة التي اناطتني بهـا أمي كل يوم .

وعندما أفتح الباب كان يطالعني وجــــه أبي حامد بابتسامته العريضة التي تضفي على وجهه طيبة وحناناً . ثم يكيل لي ثلاث كيلات من الحليب .

كانت عيناي تستقران بكثير من الفضول على يده الكتمـاء التي تقلصت أصابعها وتجمعت في راحة الكف ونتأ الابهام كأنه قطعة من خشب يابسة . كان يخطر لي احياناً ان اسأله عن سبب عاهته تلك ، ولكن الخجل كان يمنعني عن الكلام .

ثم يتحول أبو حامد الى باب جارتنا ويصرخ بصوت حنون : حليب ، وينفتح الباب فوراً ، وتبرز منه صبية صغيرة في مثل عمري ، هي سنية بنت جيراننا فتحييني بابتسامة مشرقة كصباح ربيعي فأشعر بأن الدنيا تضحك لي بأسرها ، واظل واقفاً اتملى من وجهها الصبوح حتى يملأ لها أبو حامد الوعاء الذي بيدها ، فاذا اغلقت بابها انكفأت الى داخـــل البيت وأنا ادمـــدم اغنية ، وارشف رشفات صغيرة من السائل اللذيذ .

وهكذا كان يبدأ نهاري كل يوم بداية طيبة .

فاذا تحلقنا حول المائدة كنت أسمع أمي تقول وهي تصب لنا الحليب : ابو حامد حلاب ممتاز . . . الله يبارك له . . مايغش الحليب أبداً . انه صاحب ذمة ودين. ويرد أبي قائلاً :

مسكين انه رجل طيب ، فقير وأبو عيال ، يذهب كل يوم قبل شروق الشمس ماشياً الى الغوطة ليبتاع حليبه من ثدي البقر مباشرة .

فأشعر انا نحو هذا الرجل الذي ألفته كثيراً بشيء من العطف والشفقة . ولكن شعوري هذا مالبث ان تحول ذات يوم الى اكبار واعجاب ، يوم رأيت أبي يهب من فراشه كلما سمع صوت الحلاب ويخرج معي لمقابلته . كان يفعل ذلك ليستطلع منه أخبار الثوار في الغوطة . كان يسأله أسئلة هامة ويحسب اني لا أفقه مما يقولان شيئا . كان يقول له مثلاً :

كيف حال الجماعة اليوم ؟ ؟

فيجيب ابو حامد وهو يكيل الحليب بصوت خافت ولهجة كلها ثقة :

بخير والحمد لله .. المنويات طيبة .. ثم يهمس مبتسما :

في المعركة التي جرت البارحة في قلب الغوطة استشهد ثلاثة من أولاد الميدان ، وخمسة من اولاد الشاغور ، وسبعة من الغوطة . . أنا اعرفهم جميعاً . . كل شاب والله مثل النخلة ! . . ولكنهم قتلوا

كثيراً . كثيراً من الفرنسيين . . وردوهم على أعقابهم . . هؤلاء الشهداء يا أفندي هم شباب اهل الجنة . ياليتني اصبح واحداً منهم ! . .
ويبدو الأسف على محياه ، ثم يمد يده الكتعاء ويقول :

هذه اليد يا أفندي احرقت كبدي ، لو كانت سليمة قادرة على استعمال السلاح كنت والله تركت العيال في رعاية الله والتحقت بالثورة لأجاهد في سبيل الحق والوطن .

ثم يردف قائلاً بألم شديد :

ولكن الله لم يشأ ان يمنحني هذه السعادة ! . . ثم يتحول الى باب جارنا ويصرخ : حليب . . حليب . .

سمعته ذات يوم يقول لأبي وهو يكيل الحليب كعادته :

هجم البرد يا أفندي . . واكثر الثوار ياحسرة ! ليس لديهم عباءات . . والنوم في البرية بلا عباءة امر صعب . كان الله في عونهم. ويهز ابي رأسه وهو يتمتم بكلمات مبهمة ثم يدخل البيت ويتحادث مع أمي طويلاً بصوت خافت ، ويبدو على امي انها كانت مهتمة بالحديث اهتماما شديداً واشعر برغبة ملحة لأفهم مايدور بينهما من حديث . .
في المساء اخذت استرق السمع من خلف الباب فسمعت أمي تقول :

طفت اليوم بجميع بيوت حارتنا . فما تخلف بيت واحد عن الدفع الأغنياء والفقراء على السواء . فاستطعت ان اجمع ثمن خمسين عباءة . اتدري ان ثمن العباءة الواحدة سبع ذهبات ؟ فيقول : ابي اعرف ذلك ،

الأفضل ان تشتري انت العباءات . حاولي ان تشتري من كل دكان عباءة أو اثنتين فقط ، كي لا تلفتي اليك الأنظار . فالفرنسيون يبثون الجواسيس والخونة في كل مكان . ثم يقول :

اتدرين ان ابا حامد الحلاب قد تكفل بايصال العباءات الى الثوار معرضاً نفسه للخطر .

فترد امي :

انه صاحب مروءة ونخوة . ويقول ابي :

سيأخذ معه الى الغوطة كل يوم عباءة واحدة يسلمها للثوار حتى لا يثير أي شبهة .

ومنذ ذلك اليوم اخذ ابو حامد يمر على بيتنا كل مساء ثم يخرج منه وعلى منكبيه عباءة جديدة ثم يعود في الصباح وهو عار منها ليأخذ غيرها . وهكذا الى ان اختفت ذات يوم كومة العباءات التي كانت تختبيء تحت سرير امي . .

وفي صباح كئيب عندما دقت ساعتنا العجوز دقاتها الست لم اسمع صوت الحلاب الحنون ، الذي كان كأنه يدعوني لمغادرة الفراش كل يوم . بقيت يومها قابعاً في فراشي أشعر بشيء من الغم والانقباض . حتى سمعت صوت أمي تناديني فقمت متكاسلا وتناولت فطوري دون كوب الحليب المفضل لدي . وتساءلت امي قائلة :

ماذا جرى لأبي حامد ياترى ؟ . ما كان ليتخلف عن المجيء ابداً .

فيرد ابي والقلق باد على وجهه :

من يدري لعله مريض .

عندما خرجت من المدرسة في اصيل ذلك اليوم بالذات رأيت بعض التلاميذ قد تجمعوا في منعطف قريب من المدرسة و كأنهم يتحدثون بأمر خطير . قال كبيرهم :

تعالوا يا اولاد ننزل على ساحة المرجة لنتفرج . يقولون ان الفرنسيين يعرضون فيها جثث الثوار الذين قتلوهم في معركة البارحة .

ويبدو الجزع على وجوه الصبية ويقول بعضهم :

لا تصدقوا ذلك ابداً .. الفرنسيون يكذبون كثيراً .

ويقول الكبير :

تعالوا نر اذن . ويسير امامهم .. وانخرط بينهم مأخوذاً ذاهلا . كنت ألاحظ الناس في ذلك اليوم يسيرون في الطرقات عجلين منكسي الرؤوس ، يبدو الوجوم والانقباض على وجوههم ، وكأن رماداً قد رش عليها .

لما وصلنا المرجة كانت خالية من المارة تماماً على غير عادتها ، كأن الناس كان يتحاشون المرور بها ، فيحولون عنها طريقهم نكاية بالفرنسيين . ولما صرنا في وسطها تماماً رأينا منظراً مخيفاً وقفنا امامه جامدين . لقد صفت حول النصب التذكاري القائم في وسط الساحة جثث بشعة مشوهة ، ممزقة الثياب ، ملطخة بالوحول والدماء . و كان

بضعة جنود من الفرنسيين يحرسون الجثث ، و كان ضابطهم ينظر الينا ويشير بيده الى الجثث وهو يضحك بشماتة ويقول برطانة اعجمية : ثوار ... ثوار ..

لقد بدرت مني صيحة جزع عندما رأيت جثة أبي حامد الحلاب بين الجثث ! .. كانت سحنته قد تغيرت كثيراً . ولكني عرفته من ألبسته ، ومن يده الكتماء وقد تمددت الى جانبه و كأنها برهان قاطع يثبت أن صاحبها لم يشترك في معركة لانه عاجز عن حمل السلاح .. وراح الصبية يتراجعون بصمت رهيب . و كأنهم شعروا بفداحة غلطتهم . كان يجب عليهم ألا يأتوا نكاية بالفرنسيين كما يفعل الكبار . ولما ابتعدوا قليلا قال كبيرهم بصوت مرتجف وقد بدا عليه الخزي والندم كأنه هو المسؤول عن مجيئهم :

صحيح ان الفرنسيين كذابون . ليس بين هؤلاء القتلى ثائر واحد ، أنا اعرف الثوار ذهبت مرة مع أبي الى الغوطة ورأيتهم ، انهم اقوياء ، اشداء . اما هؤلاء القتلى الذين رأيناهم فليس بينهم والله ثائر واحد ، انهم من الفلاحين المساكين ، ومن العجزة ، قتلوهم غدرا وجاءوا بجثثهم ليرهبونا .

خسئوا لن نرهبهم ابدا .. سنصبح نحن ايضا ثوارا عندما نكبر . فهز الصبية رؤوسهم هزات متتابعة تدل على تصميم وارادة ، دون أن ينطقوا بكلمة . كانت وجوههم مصفرة، كالحة كأنهامكهربة،وعيونهم

متسعة تحملق بكل شيء . وافواههم مفتوحة . يدل لهاثهم على اضطراب قلوبهم الصغيرة .

راحوا يسيرون بسرعة واقدامهم الصغيرة تضرب الارض ضربات قوية مضطربة ، كأنهم رجال حاقدون . . واحببت انا أن اتكلم لأدعم الكبير فأقول لهم :

اني رأيت جثة ابي حامد الحلاب بين الجثث ، وهو ليس بثائر كما تعلمون . ولكن لساني لم يسعفني بالنطق كأنه قد يبس في حلقي . كنت اشعر بضيق شديد يكاد يكتم انفاسي . اردت ان ابـــكي بصوت عال لأنفس عن صدري ، ولكن الدموع التي طفرت الى عيني انحبست في محجري وأبت ان تسيل كأنها قد تجمعت كلها في حلقي حتى كاد ينفجر .

اسرعت الى البيت ، رأيت امي جالسة على حافة الليوان تبدو حزينة ، شاردة الذهن ، ترقأ من حين لآخر دموعا تنهمر من عينيها بسخاء وهي صامتة . فوقفت امامهـــا مرتاعا وقلبي يدق دقات عنيفة ، وسألتها بلهفـــة : أين ابي . قالت وهي تحاول تهدئة صوتهـــا المضطرب لتطمئنني :

ابوك سافر الى الضيعة ، وسيعود بعد أيام قليلة . اقتربت منهـا وحدقت الى عينيها بوقاحة ثم قلت لها :

لماذا تخفين عني الحقيقة ؟؟..

انني أعرف انه التحق بالثورة ، وتركنا في رعاية الله كما كان يتمنى ان يفعل ابو حامد قبل أن يقتله الفرنسيون ..

فضمتني الى صدرها بعنف وقالت وهي تبتسم :

يا خبيث انك تتكلم مثل الكبار تماما . من أين عرفت كل ذلك؟ أياك ان تذكر امام أي شخص كان أن اباك التحق بالثورة . لو دري الفرنسيون لهدموا بيتنا . قلت : أيهدمونه ونحن فيه !؟؟

قالت: يعملونها يا بني ! لقد هدموا كثيرا من الدور على رؤوس سكانها . ورحت التصق في صدرها واوصالي ترتعد من الخوف .. كنت أشعر في تلك اللحظة أنني كبرت كثيراً ، وعرفت أشياء كثيرة . ألم أر الموت في أبشع مظاهره لأول مرة في حياتي ؟ ألم أعرف اليوم الكثير عن فظاعة الفرنسيين ؟؟

في تلك الليلة نمت نوما قلقا مضطربا ، كانت تقطعه أحلام مخيفة رهيبة . كنت أحيانا ارى جثة ابي ملطخة بالوحول والدماء ملقاة في ساحة المرجة الى جانب جثة الحلاب ، فأصحو على صراخي المزعج فأرى أمي واقفة أمام سريري مضطربة تهدهدني ، وتسكن من روعي، حتى أهدأ قليلا . فاذا عدت الى اغفاءة بعد جهد رأيت بيتنا ينهار تحت قصف القنابل وانا وامي نتراكض بين الدخان والغبار . ثم تعاودني رؤية الجثث ولكنها كانت هـــذه المرة لجنود فرنسيين اعرف بينهم ضابطهم اللئيم الذي كان يضحك بوقاحة ويشير بيده الى الجثث ، فأشعر بشيء من ارتياح الشماتة .

عندما بزغ الفجر كانت اعصابي قد تعبت تمـاما فاستسلمت لنوم عميق ثم صحوت على صوت ناعم ندي ينادي في أعلى الحارة :

حليب .. حليب .. كان للصوت نفس النغمة الممطوطة والجرس الحنون ، ولكنه كان ينتهي بأنة مرتجفة حزينة : عرفت الصوت حالا ، كان صوت صديقي حامد الابن الاكبر للحلاب الشهيد !.. فعضضت على شفتي من الغيظ ورحت اتصور رفيقي المسـكين المتفوق في دراسته علينا جميعـا كيف يتحتم عليه الآن ان يترك مدرسته قبل الاوان ويودع آماله الحلوة ليعيل اسرته الكبيرة !. فيضطر ان يخلع عن كتفه محفظة الكتب ليحل محلها وعاء الحليب الكبير الذي ربما لازمه طول حياته كما لازم اباه من قبل !..

وتنهمر من عيني دمعتان ساخنتان ، منذ ذلك الحين راح ينمو في اعماقي حقد كبير مرير .

وداعاً يا دمشق

سعدي بك خفيف الرأس ـ على حــــد تعبير اصدقائه ـ اذا ما كرع كأسه الثالثة انقلبت رزانته خفة ، وتحول صمته الطويل ثرثرة قد لاتنتهي الا بانتهاء الجلسة . ولما كان يدرك عيبه هذا ، فهو يؤثر اذا ما أراد ان يدفن همومه في كؤوسه ، ان يشرب مع اخلص خلانه ، حتى اذا دب دبيبها الى مكمن الاسرار كان في مأمن من الافشاء .

كانت الجلسة هذه المرة على شرفة منزله المطلة من سفح قاسيون على بساتين الشام وغوطتها . وكان جليسه صديقاً قديماً له لا يتورع من ان يبثه شكواه ، او ان يبوح له بدخيلة نفسه ، لاسيما وهو من الصنف الذي يحسن الاصغاء مهما طال الحديث .

ويجلس الصديقان يشربان ويتسامران ، فالأمسية ممتعة ، والهواء دافىء معطر ، والقمر بدر ، والمائدة حافلة بأكلات شامية شهية . ولما استقرت الكأس الثانية في جوف سعدي بك ، التفت فجأة الى صديقه وسأله جاداً :

ـ ألا تعتقد معي يافؤاد ، ان في الهرب أحياناً شجاعة؟

قال فؤاد :

ـ قد يكون ذلك صحيحاً ، وقد قال الناس قديماً :

الهرب ثلثـا الشجاعة .

قال سعدي بك :

ـ ولكن في اعتقادي ان الهرب يكون احياناً شجاعة كاملة ، بل اكثر من شجاعة ، سمه اقداماً ، تضحية ان شئت .

لقد هربت مرتين . . وكنت في هربي كما اعتقد اشجع مني في أي حين آخر .

ويصمت قليلاً وهو يفكر ويملأ كأساً . ولم يسأله صديقه ان يتم حديثه خشية ان يكون كمن يود ان يستطلع امر مالا يعنيه . غير ان سعدي بك مالبث ان عاد الى ما انقطع من حديثه فقال بصوت هادىء عميق :

كان ذلك منذ اكثر من عشرين سنة ، يوم كنت في الثامنـة عشرة من عمري نسكن حي المهارة . وكانت دارنا تقع الى جانب دار حليم باشا اكبر وجهاء الحي آنذاك . اتصدق انني مهما سكنت من الدور مازلت الى الآن احب دورنا الشامية القديمة ، واحن اليها ، وافضلها على غيرها . الا ترى معي أن في طراز بنائها القديم شيئاً من الديموقراطية .. انها تبدو على الاقل متشابهة لايشمخ كبيرها على صغيرها ، جدرانها تسند بعضها بعضاً ، ومياهها مشتركة ومكشوفة ، وسكانها دائماً أمناء على طهارة لميـاه . وسطوحها متصلة ببعضها . وشبابيكها المتقابلة المطلة على الازقة الضيقة تكاد تتعانق في ود ، توحي اليك دائماً انها تضم

اناساً متحابين متآلفين ، يشد بعضهم ازر بعض . ولا يبدو لنا الفارق الا اذا ولجنا الدهليز المعتم ، وتخطينا الدار الاولى التي كنا نسميها (البراني) الى الدار الثانية (الجواني) حيث تبدو لنا عظمة الدار في سعة فسحتها، وزخرفة ليوانها ذي القوس العالي ، وأناقـــة بحرتها الرخامية ذات النافورة الدفاقة ، كذلك كانت دار جارنا حليم باشا اكـــبر دار في الحي . وكان البراني في دار الباشا يضم كل مساء وجهاء الحارة ، وكان مكان ابي يأتي دائما الى يمين الباشا ، فهو جاره ، وابن حارته ، وصديقه القديم . وكان ابي ضابطاً متقاعداً ، قد خاض حروبا كثيرة ، وعنـده رصيد من الحوادث لاينضب ابداً . كان يتحدث الى حليم باشا وضيوفه بعنجهية عسكرية عن بطولات لم تقـــع ابداً الا في خياله الخصيب .. وكانوا يصغون اليه مأخوذين بحديثه وهم يحتسون القهوة التي يدور بهـا عليهم ابو نعيم وكيل الباشا .

كنت كثيراً ما احضر تلك الجلسات مع ابي . واتخير مكاني دائماً مقابل الباب المؤدي الى الدار الجوانية عساي المح سنية ابنة الباشا . .. فكثيراً ما كانت تغافل الخـــدم وتأتي من الدار الجوانية وتشق الباب قليلاً الذي كنت اجلس قبالته لتخالسني النـــظر ، او تشير الي اشارة تسكرني بها طول الليل . . .

كم كنت اعشق سنية ؟ . . . كنت انتظر كل صباح العربـة التي تقلها من البيت الى مدرسة الراهبات في حي باب توما . كنا نتبادل

النظرات والابتسامات ، كان لصوت حوافر الخيل المطهمة التي تجر عربة سنية على بلاط الزقاق وقـــع الموسيقى على سمعي . كنت اتلـكأ في الطريق حتى تمر العربة فلا أصل الى مدرستي — مكتب عنبر — في أكثر الأحيان الا متأخراً فيفرض علي قصاص قاس كنت اتقبله راضياً في سبيل سنية .

ولـما بلغت سنية الرابعـــة عشرة منعها ذووها من الذهاب الى المدرسة على جري العادة في ذلك العصر كما تعلم . وأصبحت لاتخرج من البيت الا بصحبة أمها أو عمتها ، ملتفة بملاءة سوداء . ولم أعـــد أراها الا لمـاما . ولـكن العشاق بارعون دوما بابتـكار الوسائل التي تصلهم ببعضهم ، مهما اشتدت المراقبة عليهم ، كانت شبابيك دارينا ذات الأخصاص الصغيرة لاتبعد عن بعضها الا قليلا . فكنا نغامر حين يشتد بنا الشوق ، فأضع على رأسي غطاء لأبدو كامرأة وأقف خلف الشباك ونشير الى بعضنا ، اونتحدث بكلمات مبهمة لايدرك معناها غيرنا ،وربما كانت هناك عشرات العيون ترقبنا من شبابيك الجيران المقابلة لنا . أما الساقية التي كانت تنحدر من دار الباشا لتمر بـــدارنا فياما حملت لي رسائل سنية . كنت اقف في الساعة التي تحددها لي أراقب الساقية ، وألتقط أي شيء طاف عليها . . . باذنجانة محفورة قد أحكم سدهـا بعد ان حشرت فيها الرسالة ، او قارورة ، او علبة صغيرة . كل شيء

له قدرة على العوم ، وعلى عدم تسرب الماء الى داخله كان قادراً لأن يحمل لي رسالة منهـــا .

وتموت في حارتنا جارة لنا عجوز ، هي زوج احـد الوجهاء .. ويصبح حتما على رجال الحارة بما فيهم البـــاشا ان يذهبوا ثلاث ليال متواليات فيما بين صلاة المغرب وصلاة العشاء الى دار المتوفاة ليتقبلوا التعازي مع اهلها . فأهل الحارة الواحدة كما تعلم كانوا و كأنهم ابناء اسرة واحدة .

وتحمل اليّ الساقية رسالة من سنية تقول فيها :

سأنتظرك بعد المغرب في البراني . لا تخف لن يكون في البيت احد غيري ، لأنهم سيذهبون جميعا لتعزية جارنا .

آه لن انسى ابداً وقفتنا تلك تحت الياسمينة !..

اشعة القمر تغمرنا والظلال تتراقص من حولنا ، والنافورة تغني لنا ، والياسمينة تداعبنا فتهرهر زهراتها علينا ، ويستقر بعضها فوق شعر سنية الفاحم نجوما ناصعة البياض . وسنية ترتدي ثوبا من حرير ازرق له حفيف ناعم ، تهف منها رائحة عطر البنفسج الذي كانت تفضله على كل عطر . والق غريب يشع من عينيها السوداوين ، ويدها الطرية الناعمة تضطرب في يدي . قلبي يخفق ، وكياني يرتعش ،ونشوة تغمرني ما عرفت اروع منها في حياتي ... طوقت سنية بذراعي ، ورحت اشد جسمها اللدن الى صدري فأسمع خفقات قلبها .. قلت لها :

ليت لنا اجنحة ...

قالت :

والى أين تريد أن نطير بها ؟؟

قلت :

الى القمر ...

قالت :

ما أروع ذلك !.. ولكن الا تشعر معي كأننا نطير الآن ؟.. وكأننا قد اقتربنا من القمر ؟..

وقبل أن ارد عليها نسمع حركة صغيرة ما أدري مأتاها ، قد تكون من قطة او نحوها ، جعلتنا في مثل لمح البصر نفترق مذعورين ونحن في اوج نشوتنا فيهرع كل منا في درب معاكس !.

وكانت هذه آخر مرة رأيت فيها سنية !..

بعد أيام قلائل اذ الساقية تحمل الي رسالة منها تقول فيها أن يجب علي الاسراع في خطبتها قبل أن يعطي ابوها كلمته لأحد الوجهاء الذي جاء البارحة يخطبها لابنه .

وهرعت الى امي .. وبحت لها بسري ، ورجوتها أن تعرض الامر على ابي . كنت اكلمها وقلبي يرتجف، واشعر بخوف ما عرفت له مثيلا ، وكأن له مخالب تنغرز في قلبي وئيدا وئيدا .. ويزداد خوفي

عندماأري تجهم وجه أمي. وكأنها شعرت بما أقاسي من لوعة وارتباك، فراحت تواسيني وتقول لي :

اخشى يا بني ان يرفضوا مصاهرتنا ؛ فنحن لسنا في مثـــل مقامهم وغناهم .

ويدخل علينا ابي فجأة ، فأتوارى خجلا منه ، وتحـكي له امي ما كان يدور بيننا . ويعود الي شيء من امل باهت عندما المس تحمسه للقضية فهو لا يرى نفسه اقل شأنا من حليم باشا . قد اكسبته تربيته العسكرية كبرياء وانفة . ويصر أن يذهب فوراً الى الباشا ليخطب لي ابنته تحديا لأمي التي ارادت ان نتمهل قليلا لتمهد للامر وترسـل من يجس النبض حسب قولها .

ويعود ابي من دار الباشا مقهوراً ، محطم الكبرياء ، حتى خيل الي ان قامته المنتصبة قـد انحنت قليلا فقد خاب أمـله بالباشا الذي رده ردا غير كريم . ونوه له بلهجة يفهم منها :

انه كان الأحرى به ألا يتطاول الى مقام أرفع منه ، والا يتناسى هذا الفارق البين بين الأسرتين . ويحلف ابي الا يرى الباشا ، وألا يكلمه ابداً بعد هذه الاهانة التي لحقته منه .

وتتحطم آمالي كلها كما يتحطم لوح من زجاج شفاف ارتطم بأرض صلبـــة . . .

ولا بد لك ان تسألني وكيف كان حالي بعد ذلـــك ؟

لقد كنت شجاعاً . . . شجاعاً حقا اكثر مما كنت انتظر انا نفسي . . لم ازو في ركن من بيتنا لأجتر مأساتي كأي مراهق بليد ، لقد كان لدي من الجلد مايكفيني لكتم الألم الذي راح يمزقني فما يبدو علي منه شيء . . .

وما أسرع ما انتشر الخبر في حارتنا فقد نقله ابو نعيم الذي سمع مادار بين أبي والباشا الى السائس ، والسائس حكاه الى الحلاق ، والحلاق وجده خبراً مثيراً لتسلية زبائنه . .

كنت ألمح الشماتة في عيون شباب الحارة ، فكل واحد منهم كان يحلم بسنية ، ويعز عليه ان يستأثر بها غيره .

ورحت افكر في كثير من العزم والتصميم لتحطيم السلاسل التي كانت تشدني الى سنية منذ وعيت الدنيا وان كان في تحطيمها تحطيم قلبي. فقد كان يخيل الي انني غير قادر على السكن في حي بعيد عنها . . وأقرر الهرب من الشام كلها ، لأهرب من مأساتي .

وكان لي خال مغترب يعمل في سان باولو من اعمال البرازيل ، ليس له أولاد ، وكان يكتب إلي من حين لآخر يحثني على المجيء اليه لأتعاون معه على ادارة اعماله الكبيرة . وكان أهلي يشجعونني على الذهاب اليه لما ينتظرني هناك من خير وكنت أرفض دائما من اجل سنية . . .

ولما بلغها خبر عزمي على السفر اخذت تكتب الي رسائل كثيرة تستحلفني فيها ان لا أسافر ، فهي لا تقوى على العيش بعيدة عني ، وتعدني بأنها ستسعى دائما لتهيئة الفرص المناسبة لالتقائنا . وكانت رسائلها تزيد في ألمي وعذابي ، وكثيراً ما كانت تبكيني وتؤرقني طول الليل . ورغم ذلك لم أضعف ولم اتخاذل . أيرضي سنية ان تكون زوجة لغيري ، وأن أظـــل عشيقا لها طول العمر ، اتحرق على لقياها ، وأتلصص خلف الشبابيك والأبواب لأفوز منها بنظرة ! ! . .

انا لا أحب الطرق الملتوية منذ صغري . . .

وكانت الشجاعة في أن أهرب . . .

وهربت . . . واغتربت عن الشام عشرين سنة .

وكان الحظ حليفي في كل خطوة أخطوها في البرازيل ، وتفتح امامي ابواب الرزق والتوفيق على مصراعيها . . . ولكني كنت أشعر دائماً ان في سعادتي نقصاً مايعوضه عليّ شيء . .

لم أفكر بالزواج أبداً ، ولم أعرف نشوة الحب على كثرة ماعاشرت من النساء ، كما عرفتها امام سنية . فأنا لم أنسها ابداً . كلـــما بعد بنا العهد تألقت ذكراها في نفسي وازدادت تمكنـاً منهـا . وتصبح سنية والشام شيئاً واحداً في مخيلتي ، لاتأتي ذكرى احـــداها إلا مقرونة بالأخرى . وكلما مرت الأيام ازداد حنيني ، ونفد صبري . . .

وذات ليلة استبد بي الأرق ، واللوعة على فراق الوطن فما يصبح الصباح حتى اقرر ان اجمع ما كسبته ، وأعود الى بلدي التي هربت منها يوماً بسبب سنية . .

ولشد ماأفرحني وأدهشني مالمست في بـــلادي من تقدم وتطور ما كنت أحـــلم به ، كما آلمني اختفاء بعض الصور التي كنت ألفتها ، وحننت إليها في غربتي . . .

ورأيتني ، ولم يطل مقامي بعد ، أتنسم اخبار سنية ، ووجدتني بالرغم عنى ماأبرح افكر بطريقة تتيح لي الالتقاء بها . . . ولكن الأمر كان أيسر مما توهمت . هل تصدق ان أول دعوة تلقيتها كانت من سنيـــة ؟ . .

دهشت ولم تصدق عيناي ما أرى . . . لقد تطورنا ياأخي بسرعة غريبة الى حد خرجنا به عن المألوف .

فسنية التي تركتها قبل عشرين سنة لاتخرج الى الطريق إلا ملتفة بملاءة سوداء ، ولابد ان يرافقها احد ذويها . اذ هي تخرج الآن بمفردها سافرة تماماً ، ولا ترى حرجاً في ان تدعو رجلاً مثلي الى دارها لتعرفه على زوجها ، ولا رابطة تربطها به سوى انه كان جاراً لهـا منذ عشرين سنـــة . . .

وأجدني فرحاً بهذه الدعوة انتظر ميعادها بصبر فارغ . ولكنني

عندما وقفت أمام باب بيتها وجدتني متردداً ، خائفاً . . . أود لو أن أعود . . . خشيت ان أرى سنية قد تغيرت عما كنت أعرفها عليه ، وانا حريص كل الحرص على ان أظل محتفظاً لها بتلك الصورة الرائعة المنطبعة في ذاكرتي، والتي اتخذتها مقياساً لجمال المرأة . ولكن لامناص لي من الدخول فأنا لم أعتذر عن المجيء .

وكم عجبت عندما رأيتها وهي في الخامسة والثلاثين أحلى منها في الخامسة عشرة . لقد امتلأت قليلاً فازداد جسمها بضاضة ولدانة ، ومسحة من الحزن راحت تكسو محياها فيبدو جمالها أعمق وأفتن .

وتقدم إلي زوجها — رجل قصير بطين ، تطل البلادة من كل قسمة من قسمات وجهه . . وما أظن ان له ميزة سوى أنه ابن عائلة معروفة ، وقد ورث ثروة طائلة جمعها له الآخرون . .

كان هذا هو الرجل الذي اختاره لها أبوها ، وكان عليها ان ترضخ لمشيئته ، مهما كان الأمر ! . . . وفي لمحة استطعت ان أقدر مدى الضيق الذي عاشت فيه هذه المسكينة ! . .

كان لقاؤنا الأول فاتراً ، فكلانا تلعثم وارتبك امام صاحبه ، وبدأت الدعوات تتتالى علي من سنية . وأصبح أنا أيضاً اتحين الفرص التي تتيح لي الالتقاء بها ، فكنت أرتاد الأماكن التي ترتادها هي . ولكن مامن مرة أتيح لنا ان ننفرد ببعضنا . . الى أن كانت ليلة أول

البارحة ، وكنت قد تلقيت منها دعوة الى العشاء في مصيف الزبداني . كانت الدار التي تصطاف فيها سنية مختبئة في بستان كثيف الأشجار .

وأصل في الموعد الذي حددته لي ، أي قبـل ان يصل زوجهـا بقليل ، ولاأدري فيما اذا تعمدتذلكأم جاء مصادفة . وجلسنا منفردين على الشرفة في ضوء القمر . وكانت سنية ترتدي ثوبا من حرير أزرق له حفيف ناعم ، وعطر البنفسج عطرها القديم تفوح رائحتـــه . . أتراها هـــل تعمدت ذلك أيضاً لتعيد الي ذاكرتي نفس الصورة التي رأيتها فيها في آخر لقاء لنا ؟ ؟ . .

اقتربت مني وقالت بصوت ناعم شجي :

لقد حدثتني كثيراً عن أميركا . اما اخبارك الخاصة ، فما سمعتك مرة تتحدث عنها . .

قلت : أويهمك ذلك ؟ ؟

قالت : يهمني جداً . . . أكثر مما تظن . .

فضحكت وقلت : عما تريدين ان أحدثك ؟

قالت وعيناها تضحكان : حدثني عن النساء اللواتي أحببتهن هنـاك .

قلت : أتصدقين ياترى اذا قلت لك ماأحببت امرأة الا وفيها شيء منك ؟ . . أحببت مرة امرأة لأن لها صوت ضحكتك المرحـــة ،

وأخرى لأن لها طراوة جسمك اللدن . . أما عيناك الآسرتان . .
فلكم بحثت عنها فلم أر لهما مثيلا . .

فاذا هي تتنهد من عمق ، وتشرد قليلاً ثم تقول :

ـ أحقاً ماتقول ؟؟

قلت : أو تشكين بقولي ؟

ويعود إلى عينيها ذلك الألق ، الذي كانت محته مسحة الحزن التي شاعت في وجهها ، وتعطيني يدها ، وآخذها بين يدي . . مازالت طرية ناعمة كما كانت قبل عشرين سنة . .

ثم تقول هامسة بصوت الناعم الشجي:

أما آن أن تنبت لنا أجنحة ؟

قلت : أما زلت تذكرين اذن حديثنا عن الأجنحة في آخر وقفة لنا في دياركم البرانية في حي العمارة ؟ .

قالت : سامحك الله ! أو تريدني ان انسى احلى لحظات حياتي ؟؟ . .
لو أني نسيت لما سألتك سؤالي :

أما آن ان تنبت لنا اجنحة ؟ ؟ . .

قلت : لقد آن لنا ذلك . . فهل لك ان تطيرى معي ؟

قالت : الى آخر الدنيا ان شئت . .

ثم تشير بيدها الى البستان الفسيح ، والفيلا الأنيقة التي تضم زوجها وولديها وتقول :

سأتخـــلى عن كل ماترى من أجلك . . كانت تقولهـا تصميم وتحـــد" .

وأطوقها بذراعي ، وأشدها إلى صدري ، واشعر بأنفاسها تلفح وجهي ، ويروح قلبي يضطرب ، وكياني يرتعش ، وتعاودني تلك النشوة التي ما عرفتها امام امرأة غيرهـا . .

ولكن حركة صغيرة جعلتنا نفترق في مثـل لمح البصر ونحن في اوج نشوتنا ! . .

كانت هذه المرة آتية عن ملاكين صغيرين جاءا يتعثران بثوبين ابيضين للنوم ليأخذا من امهما قبـــلة المساء . .

قامت مرتبكة وقالت :

سأغيب قليلاً ، وتخرج من الشرفة والصغيران يقمزان امامهـا ، ويتطاولان ليقبلاها في عنقها ، وهي تحوطهما بذراعيها ، وتحنو عليهما ، وتداعبهـــما .

واقف برهة ، ارقب هذه الصورة الرائعة وهي تبتعد عني شيئاً فشيئاً في البهو الأنيق ، صورة ام شابة يحف بها طفـــلان كملاكين ، لوحة رائعة لم يبدعها فنان بعــــد . . .

وأروح أفكر وأتساءل :

أيجوز لي ان أفسد هذا الجمال ؟

أن أشوه اللوحـــة الرائعة ؟

ان أبدل سعادة الملاكين الصغيرين تعاسة ؟

أن أهدم هـــذا البيت ؟ ؟

لا . . لا لن أقدم على ذلـــك . .

وكان للشرفـــة التي أقف عليها درج متصل بالحديقة ، فقفزت درجاته بسرعة ، وهربت .

ثم يحدق سعدي بك الى جليسه ويقول :

أتدري لمـاذا دعوتك الليـــلة ؟ ؟

ثم يمد يده الى جيبه ، ويخرج منها بطاقة سفر الى أميركا ، يلوح له بهـا ويقـــول :

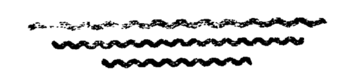
دعوتك لأسهر معك هـذه الليلة ، آخر ليلة لي في دمشق حتى يحين موعد الطائرة . وهاهو ذا قد حان . خشيت ياأخي أن تنازعني نفسي اليها ، فلا أقوى على ردها مادمت انا وهي في بلد واحد ، لا بـد ان تجمعنا مناسبات ومصادفات .

لقد عاد حبها الى قلبي أعنف مما كان ، فاما ان أقـــدم على أمر

أعتقده جريمة ، وإما ان أغادر دمشق الى غير رجعة . . . كما سبق لي أن غادرتها قبل عشرين سنة من أجل سنية .

ثم يقوم متثاقلاً ، وهو يحدق بعينين نهمتين الى السهل الفسيح الذي ترتاح فيه دمشق ، كأنه يتملى منها وشفتاه تتمتمان بـــلوعة :

وداعاً يادمشق لا لقاء من بعـــده ! . . .



انهزم أمام الطفل

القيت على عاتقي ذات صباح مهمة شاقة عسيرة ، وكان لا بد لي أن أقوم بها مهما كلفني الأمر ، فليس من السهل علي أبداً أن اتوانى عن تحقيق أمنية امرأة على فراش الموت ، كانت قد بعثت الي بمن يرجوني ان أقنع ابنتها — وهي أعز صديقة لدي — لتذهب الى المستشفي وتودع امها التي تحتضر !

وكانت الصلات قد انقطعت بين صديقتي هذه وامها منذ افترقت عن أبيها وتزوجت برجل آخر .

وكنت أخشى ان يبوء مسعاي بالفشل ، فأنا أعرف صديقتي عنيدة ، متشبثة برأيها الى حد بعيد ، لا تطيق ابداً أن يتدخل احد في شؤونها مهما تكن منزلته اثيرة لديها ، لاسيما فيما يتعلق بمشكلاتها مع أمها .

وقد وقع ما كنت احذره .. فقد رفضت سعاد وساطتي في بادىء الأمر ، مما جعلني أثور عليها وأقول لها بشيء من التأنيب :

— ما كنت أحسبك قاسية الى هذا الحد !.. أؤكد لك انك ستندمين

على تصرفك هذا .. بل ستبكين ندماً ، ولكن حين لا ينفع الندم ، ولا يجدي البكاء !.

ورغم ما قلته لها تظل سعاد قاعدة امامي جامدة القسمات ، لا يبدو على وجهها شيء من اضطراب أو حزن ، وترد علي ببرود قتال :

— لن اذهب .. لا تتعبي نفسك اكثر مما اتبعتها . قلت لك انني اعتبر امي ميتة منذ زمن بعيد ، منذ أصرت على الطلاق من أبي لتتزوج من ذلك الرجل التافه . . كنت أتوقع لها هذه النهاية المؤلمة ! . ولكن جاءت أسرع مما كنت انتظر .. سمعت انه تخلى عنها وهاجر الى أميركا دون أن يهتم بأمرها ، أو بأمر الجنين الذي في أحشائها ، انها الآن تلقى جزاءها .. وقد حزنت عليها ما فيه الكفاية ، منذ أقدمت على ما أقدمت عليه ، وقد بلي حزني في طيات نفسي كما تبلى جميع الاحزان في قلوب الناس اذا ما عدا عليها الزمن ، فلماذا جئتني أنت الآن تريدين ان تبعثي أحزاني من جديد ؟ .

وينفتح علينا باب الغرفة قبل ان أرد عليها ، ويظهر أبو سعاد بقامته المديدة المهيبة ، كان ممتقع الوجه ، تختلج اجفانه خلف نظارتيه كأنه يحاول تبديد دموعه . كان واضحاً انه سمع حوارنا ، ويلتفت الى سعاد ويقول لها بصوت خفيض مضطرب فيه لهجة عتاب وتأنيب :

— سعاد ! يجب ان تذهبي يابنتي الى حيث تدعوك صديقتك .

ثم ينفتل بسرعة ، ويدخل غرفته ويوصد بابه كأنه يخشى
يتبعه أحد منا ! . .

قلت لسعاد :

لا يجوز لك ان تعصي أباك ، كم هو رجل نبيل ! . أما أنت فما
أدري ما أقوله عنك ؟ ؟ .

وتمتثل سعاد أخيراً لكلامي فتسير أمامي مستسلمة دون أن
تنبس بكلمة . ولما ركبنا السيارة لاحظت أنها تعاني حرجاً شديداً .
كانت صامتة ينضح وجهها عرقاً . وتتلاحق أنفاسها كمن أصيبت بحمى
طارئة . وقبل أن نصل بقليل تلتفت الي وتقول :

أحقاً انها تموت كما تزعمين ؟؟ انني لا أريد أن اصدق ذلك . هذه
حيلة منك قد اصطنعتها كي تجمعي بيننا بعد فرقتنا الطويلة .

قلت لها :

ـ أقسم لك ان خالك قد جاءني هذا الصباح وقال لي:

ان أمك قد اصيبت بنزف بعد الولادة ، وقد قطع الطبيب كل
أمل من شفائها . وكانت تهذي طول الليل ، وتطلب رؤيتك بالحاح .
فما أن طلع الصباح حتى هرع الي يرجوني أن أقنعك بالمجيء .

قالت :

ما أصعب هذا اللقاء علي ! . وراحت تفرك يداً بيد من شدة
اضطرابها . ورحت أهون عليها الأمر ما استطعت . ولما وصلنا المستشفى
كان بهوه خالياً الا من بعض ممرضات كن منهمكات بأعمالهن،ما يكدن

يظهرن حتى يختفين ثانية . وكان خال سعادواقفاً لصق احد الجدران ، وقد اسند رأسه الى عارضة باب ، فما ان رآنا حتى قال كلمة واحدة خرجت من فمه كقذيفة :

ماتـت !.

ويشير بيده الى سعاد أشارة تفيد أن أفرحي أو اشمتي ماشاءت لك الشماتـة .

ويفاجئني الخبر فأجلس على أحد المقاعد مذهولة ، بينما تظل سعاد واقفة مكانها ، كأن قدميها قـد سمرتا بالأرض ، تنظر حولها بعينين متسعتين من الارتياع ، وقد بدت عليها مسحة من بلاهة ، مارأيتها على وجهها قط .

وفجأة تظهر امرأة خالها من خلف احد الأبواب . امرأة صغيرة الجسم مكهربة الوجه ، مربدة السحنة ، تنم نظراتهـا عن خبث ولؤم . وتقف متحفزة على بعد خطوتين من سعاد . وكأنها استطاعت في آخر لحظة ان تكبح جماح لؤمها ، فاكتفت بأن قالت لهـا :

أخيراً وصلت ! . . ياليتها لم تخلفك ! . .

ثم تلتفت إلى زوجها وتقول له متحدية :

ـمشاكل أختك معقدة حية ميتة ! . . لم تعد تجوز عليها إلا الرحمة. قل لي ماذا قررت أن تفعل بشأن الطفل ؟ ؟

أقول لك ولآخر مرة : أن أدخله بيتي ، لسنا ملزومين به أبداً ، يكفيني ما ألقاه من متاعب أولادي .

ويرفع الرجل يديه الى السماء ويقول :

ماهذه المصيبة يا ربي ؟ ! . . أتريدني أن ألقيه على قارعة الطريق؟ ومن سيكفله إن لم أكفله أنا ؟ من أين لي أن أطول أباه ؟ ؟

وتلفظ سعاد كلمتين فقط ، توجهها الى امرأة خالها دون أي تمهيد:

هاتي الطفل .

وكأن الكلمتين الصغيرتين قد حلتا الأزمة المعقدة ، فاذا الحزن ينزاح قليلاً عن وجه الرجل ، وتتنفس امرأته بارتياح كمن ألقي عن كاهله حملاً ثقيلا ، ثم تذهب مسرعة ، وتغيب قليـــلاً ، ثم تعود حاملة الطفل على ذراعها ملفوفاً بقماط أبيض ، وقـــد أسدل على وجهه منديلاً شفافاً يدل على أنه مستغرق في نومه ، وبيدها الثانية كانت تحمل صرة صغيرة يبدو أنها جمعت فيها أشياء الطفل . وتعطيها إلى سعاد وهي تقول لها :

ـ انه أخوك على كل حال ، وأنت أولى به من الجميع .

وتتناول سعاد الطفل كما يتناول الشيء ! . . . ثم تحمـل الصرة وتتجه نحو الباب بخطى مضطربة ، دون ان تكلم أحداً . ولقد تركتني دون أن تلتفت إليّ او تطـــلب العون مني ، أنا التي أقنعتها بالمجيء ، ورافقتها الى المستشفى . . ويبدو لي تصرفها غريباً . وقـد فسرته بانها لاتريد أن يطلع احد على ماسيجري بينها وبين أبيها اذا مافاجأته بالطفل.

وصممت بعد ذلك على أن لا أزورها مالم تبادئني هي بالزيارة ، أو تدعوني اليها ، كي لا أسبب لها حرجاً . رغم أني كنت متلهفة على معرفة أخبارها أشد اللهفة .

وبعد شهور قليلة تردني منها هـــذه الرسالة التي تقول لي فيهـا فـــيما تقول :

« كلما آويت إلى فراشي استبد بي الأرق ، وراحت ذاكـرتي تستعيد دقائق الأمور التي كانت تجري في بيتنا منذ بدأت أعي الى يومي هذا . فاذا الحقائق تنكشف لي عن أمور تذهلني ، وتخيفني ، لأن من الصعب علينا ان نحكم على أنفسنا في معركة نخوضها ، ولكن عندما تنتهي المعركة وتصبح رهينة في طيات الزمن ، تتراءى لنا أحداثها من بعيد ، وتزداد وضوحاً كلما بعد بها العهد ، فنستطيع عندئذ ان نتجرد من ذاتنا الغابرة ، وأن نحكم على أنفسنا حكماً قد لا يبعد كثيراً عن الصحة .

لقد انتهت معركتنا بموت أمي ! . . بعـــد ان ظلت محتدمة في أسرتنا الصغيرة سنين طويلة . لقد تبين لي اننا كنا ننسج مأساتنا بأيدينا ، ننسجها خيطـاً خيطـاً بتؤدة ، وحرص ، وروية . دون أن نفطن بأننا سنكون الضحايا .

وكنت ـ وياهول ما كنت ـ اقبض على الخيوط بيدي ، وأوزعها كيفما شئت . وأحب الآن ان أشرح لك كل ذلك ففي شرحه راحة لي ، ووفاء لأمي .

عندما كبرت قليـــلاً كان لا بد - كلما رافقت أمي - ان تتردد أمامي جملة تقهرني وتحز في قلبي :

هذه ابنتك ؟ ؟ سبحان الله انها لاتشبهك أبداً .

وافهم أنهم يريدون أن يقولوا انني لست جميلة كأمي .

وتضحك أمي ضحكة هازئة تجرحني في صميمي وتقول :

كأنها صورة عن أبيها ، وهي مثله أيضاً ، ذكية وتحب الدرس والمطالعـــة .

وأدرك انها كانت تقول ذلك مراعاة لي . ولكن هـذه المراعاة كانت تؤذيني أيضاً وتزيـد في ألمي . وبالرغم من صغر سني كانت لدي القدرة الكافية لأن أواري هـذا الشعور في أعماق نفسي فما يبدو منه شيء ولكن لم يلبث مع الأيام حتى استحال حقداً وكرهاً لأمي .

كم كنت أتمنى أن أكون جميلة مثلها ! . . . وأذكر أنني كثيراً ما كنت أجلس صامتة مكبوتة ، أتفرس في وجهها المشرق الجميـل ، وأقارن بينه وبين وجهي ذي الأنف الكبير والعينين الصغيرتين والبشرة الكالحة . فأشعر بالغيرة تلذع كبدي الصغير ، وبالحقدعلأنفسي الغضة ، ولا أجد ما أنفس به عن كبتي سوى ان أشاكس أمي . وكلما رأيتها منزعجة كنت أشعر بارتياح ، وأظل أمعن في استفزازها حتى أحملها على ضربي ، حينئذ كان لا بد أن ينتصر لي أبي فيقع بينهما من جراء ذلك خلاف شديد ، كنت أراقبـه فرحة شامتة .

وتستمر هذه الحال طوال مدة طفولتي ، حتى ينشأ شيء من النفور بيني وبين أمي ، وكانت ـ المسكينة بدافع من حنانها تحاول دائماً أن تمحوه ، بينما كنت انا أثبت أصوله .

ولما تخطيت الطفولة راحت مشاكستي لأمي تأخذ شكلا آخر . كنت قد برزت في دراسي ، وراحت تظهر علي بوادر ذكاء عجيب . وكان أبي فخوراً بي يقدمني الى زملائه الاساتذة معتزاً بذكائي وثقافتي التي قلما يحصّلها من كان في مثل عمري . وكان يشركني بالأحاديث التي تدور بينهم . ولما استويت صبية رحت أطلب منـــه أن يدعو الى بيتنا أهل الفكر والأدب من رفاقه ، حتى أمست سهراتنا ندوات لا يسمع فيها الا احاديث الأدب والفن . وقد تمتد أحياناً حتى منتصف الليل ، وكانت امي تجلس بيننا صامتة . وكلما حاولت أن تشترك في بعض المناقشات ظهر جهلها جلياً . وكنت ابتسم بخبث هازئة بها ، واشعرها دائما بأن لا مكان لها بيننا ، فكانت في اكثر الاحيان تنسحب من بيننا غاضبة وتقعد في غرفتها مقهورة ، او تستلقي على سريرها وحيدة ناقمة .

كنت أحب ان أثبت لأبي ، ولأمي ، وحتى لنفسي أيضاً بأن الجمال لا قيمة له إذا ماقورن بالذكاء والثقافة ، وان الأناقـة التي تستهلك معظم أوقات المرأة ماهي إلا دلالة واضحة على تفاهتها . وكان أبي يؤيد رأيي دائماً .

وكانت أمي مقابل ذلك تهزأ بجديتنا ، وتسخر بكل مانراه جليلاً

ء ا يا . ويخيـــل إلي الآن ان الثرثرة الفارغة التي كانت تضجرنا بها كلما رأتنا غارقين في كتبنا ، ماهي إلا من قبيل الدفاع عن النفس .

ويظل هذا حالنا سنين طويلة حتى يأتي يوم تتسع فيه الشقة بيننا فتجد أمي نفسها كالغريبة في بيتها ، تقعد بيننا كالضائعة ، لا أحد يعيرها اهتماما ، أو يعمل برأيها . وليس من السهل ابداً ان تستسلم لمثل هـــذا الموقف امرأة معتدة بنفسها ، كأمي ، جميلة لا تزال في عز صباها ، لم تتخط - السادسة والثلاثين من عمرها ، عندما تكون خارج بيتها تحاط بكل حفاوة واهتمام ، حتى اذا عادت اليه شعرت بأنها امرأة لا أهمية لها تكاد تفقد ثقتها بنفسها . فليس عجباً اذا ان ترغب بالخروج من البيت دائماً أبداً . فكانت أحياناً تمضي السهرة بالسينما ، أو عند بعض صديقاتها بينما نظل انا وأبي غارقين في دراساتنا وندواتنا ، ويصبح غياب أمي عن البيت أمراً مألوفاً لدينا . ويبدأ شيء من الجفاء والـــلا مبالاة يسود حياتنا بالنسبة لأمي .

وفي غمرة ذلك كله تتعرف أمي على رجـــل هو قريب احدى صديقاتها ، لا يلبث أن يعجب بها ، وتعجب به ، فيطري جمـالها وفتنتها ويمتدح اناقتها ولباقتها، وكان بذلك كله يعيد اليهـا ثقتها بنفسها ، في سن هي احوج ماتكون فيه الى تلك الثقة . . ويشعرها بأهميتها التي فقدتها بيننا .

فكان ان تشبثت به وأصرت على الطلاق من أبي لتتزوجمنه .

أما أبي المسكين فكان كصبي مل دميته كما تمل الدمى ، فأهملها في ركن من بيته مطمئناً الى وجودها بقربه ، وانه يستطيع اللهو بها كلما عاودته الرغبة فيها . ولكن لما جاء غيره يسلبه إياها حلت في عينيه ، وصعب عليه الأمر حتى كاد يخيل اليه انه غير قادر على فراقها . وبالرغم من ذلك كله لم يستطع ان يفرض نفسه عليها . . واضطر ان يوافق على الطلاق مرغماً ، امام اصرارها الشديد الذى جرح كرامته ، وأهان رجولته . . وكان علي وحدي ان اداري آلامه ، وأهون عليه الأمر ما استطعت . فكنت أثور على تصرف أمي ، وأثبت له دائماً انها امرأة تافهة لا تستحق ان تكون زوجة لرجل مثقف ، مفكر مثله .

كنت لا ازال أخوض المعركة معصوبة العينين ، حتى إذا جاءت النهاية المريعة صحوت فجأة ، وراحت تنزاح الستور أمام ناظرى ستراً ستراً .

أتذكرين موقفي يوم المستشفى ؟ لقد خيل الي في تلك اللحظة ان أمي كانت تلح في طلبي لتعهد الي بالطفل ، فمها كان أمري معها ، فانا أرأف به من إمرأة أخيها اللئيمة .

ومنذ ذلك الحين راح يتحرك في أعماق نفسي شيء يوحي الي أنني كنت وحدي المذنبة .

ولما جئت بالطفل الى بيتنا كان أبي يذرع الردهة جيئة وذهاباً من الباب الى الشباك ليطمئن على مصير أمي فما يزال يحفظ لها في قلبه

شيئاً من العطف والحب . ولما رآني أحمل الطفل على ذراعي نظر إلي مشدوهاً لحظة ثم قال :

ـ ويلك ماذا تحملين؟ ؟ .

قلت متحدية :

ـ أحمل أخي . . . لقد ماتت أمي بعد ان عهدت إليَّ به ، لا بد لي أن أرعاه . . وأنفجر باكية ، ويزعق الصغير على ذراعي زعيقاً متواصلاً ، مما يزيد في حرج الموقف .

فيهرول أبي إلى غرفته كأنه يهرب منا وهو يقول :

ـ افعلي ماتريدين . . ولكن إياك ان تريني وجهه ، أو تسمعيني صوته . . ثم يصفق الباب خلفه صفقة قوية تأتي كاحتجاج صارخ على تصرفي الوقح دون استشارته .

وأدرك انني اظلم أبي . فوجود الطفل بيننا سينغص عليه عيشه ، فهو ابن غريمه ، وابن المرأة التي تخلت عنه بعد عشرة عشرين سنة . وعدا ذلك لا بد ان يتقول الناس بما لا يليق به . كذلك فان وجود الطفل بيننا سيحول دون نسيان المأساة .

ولكن لا سبيل للتراجع أبداً .

وأختار للصغير أبعد غرفة عن غرفة أبي . ويبدأ يدب بيننا شيء من الجفاء والبرود . أبي معتكف في غرفته بين كتبه وأوراقه لا يبرحها إلا نادراً ، وأنا منصرفة للعناية بالصغير وللدراسة فيما تبقى لي من الوقت.

وراح يخيم على بيتنا صمت كئيب لا يخدشه إلا زعيق الطفل بين كل حين وآخر . كأنه يذكرنا بمرارة واقعنا كلما سهونا عنه . ولم تعد سهراتنا ندوات يؤمها أهل الفكر والأدب كما كانت في الماضي ، الأمر الذي أضجر أمي . وكأن الأقدار شاءت ان تنتقم منا على يدي هذا الصغير، وبالرغم من ذلك كله بدأت أحبه .

كنت أجد في رعايته لذة لامثيل لها في حياتي . كنت أعود الى البيت متلهفة على رؤيته . وراح ينمو بسرعة غريبة حتى غدا في بضعة شهور طفلاً رائعاً . كنت أضمه في حجري أناغيه وألاعبه ، وأتفرس في تقاطيع وجهه المكاشمة ، وفي عينيه الواسعتين ، إنه صورة مصغرة عن أمي ! . . . ترى لو أن هـذا الشبه جاء فيّ أنا أما كان تغير مجرى حياتنا من أساسه ؟

كنت أتمنى ان تواتيني الشجاعة الكافية لابسط هذه الحقائق التي اكتشفتها امام أبي . لابد له عندئذ أن يغفر لأمي ، وسيحب الطفل حتما . ولكنه سيدينني كما أدنت نفسي . . . ومن يدري ربما كرهني ، وهذا مالا طاقة لي به .

وذات ليلة وبينما كانت هـذه الفكرة تنخر في رأسي كسوسة دؤوب ، اذ يتناهى إلي بكاء الصغير ، وأتلكأ عنه قليلاً فاذا البكاء ينقطع فجأة ، مما يثير خوفي عليه ، فأقوم بسرعة لأتفقده ، فاذا أبي قد سبقني الى غرفته . وأقف خلف الباب من حيث أراه ولايراني ، وكم كانت

دهشتي عظيمة حين رأيته يحمل الصغير على ذراعيه ، ويهدهـده بحنـان واضح ، ـ هو الذي كان لا يريد أن يراه أو يسمع صوته - ولكن الصغير لم يسكت ، فراح يؤرجحه ذات اليمين وذات الشمال ، حتى إذا نام أعاده الى مهده بتؤدة ورفق ، ويقف يتأمله وفي نظراته عطف ولين ثم تنحدر من عينيه دمعتان يمسحها بأصابعه .

مسكين أبي لماذا يخفي شعوره عني ؟ أتراه يخجل بتسامحه ، وحنانه ، ويرى فيهما خنوعا وضعفا ؟

حقده المرير ذاب كله في حلاوة ابتسامة صغيرة على ثغر طفل بريء . . وكبرياؤه وجبروته تداعت كلها أمام طفولة هشة ضعيفة !

لقد انهزم أمام طفل ! . .

لا بد لي أن أمزق هذا الحجاب القائم بيننا . واقتحم عليه الغرفة فينظر إلي مرتبكاً ثم يبتسم بخجل ، وألقي رأسي على كتفه ، ونجهش بالبكاء معاً .

سلاطين مخفية

بعد قليل سيصل الى الضيعة ... ما أشد حنينه اليها ... ويشعر أنه خفيف الوطء على الأرض . يسير وكأنه مجنح يطير .

بعد ربع ساعة فقط وسيمرغ جبهته على تربتها السمراء ،سينشق عبقها الطيب ،سيعانق الدلبة الضخمة التي تظلل العين في ساحة القرية . ما أشد شوقه اليها ..ويتذكر كيف كان ورفاقه يتسلقونها كالنسانيس الصغيرة ويختبئون بين أوراقها الكثيفة ثم يقطفون حبات الدلبة ويقذفون بها الصبايا وهن يملأن جرارهن من العين ، وكم كانوا يضحكون عندما تنصب عليهم شتائمهن المقزعة .

ويمد يده الى عبه يتحسس بها السند الذي استلمه البارحة كأنه يطمئن على وجوده . لا ليس هو حلماً ، ولا وهماً ، انه حقيقة واقعة .. وها هي ذي يده تقبض عليه . لقد أصبح ملاكا ... ويميل برأسه الى الوراء منتزا ، ويضحك بعمق ملء فمه وقلبه كما لم يضحك أبداً .

ويمر بخاطره قول زميله محمود الذي كان يعمل معه في رصف الطرق:

ـ يابختك ياحسين .. ستأخذ نصيبك من الأرض، يا ليتني فلاح مثلك !.. مافي أبرك من الأرض . المثل يقول :

فلاح مكفي سلطان مخفي .

ـ هذا صحيح يا محمود ، ولكن الفلاح لا يصبح يا أخي مكفياً الا اذا ملك الأرض . سنملكها ... سنصبح كلنا سلاطين مخفية . . لن تغضب السماء بعد اليوم ، ولن تحبس المطر عن الأرض أبداً وقد عادت الأرض الى أبنائها . لن تعطش أراضينا ، سنسقيها من عرقنا ان شح ماؤها .

ويغذ السير خفيف الوطء كأنه يطير .

منذ عشر سنوات هجر قريته ولم يطأ أرضها أبداً . جاء يعمل في المدينة . وكان كلما نازعه الحنين الى مراتع طفولته وملاعب صباه ينبش من أعماقه تلك الذكرى المؤلمة ليتخذها كترس يصد به حبه العنيد لها حتى يحيله مقتا وكرها .

كانت أيام البيادر أحب المواسم اليه كان يلعب ورفاقه بين كومات القمح أو يركبون على النوارج التي تدرس القمح المفروش على البيدر دوائر ، دوائر . وكان صوت المذراة يملأ البيدر ضجيجاً ، وأبوه مع رجلين آخرين يقفون أمام المذراة يلقمونها القمح المدروس بحركة آلية فتفصل عنه التبن وتلقيه جانباً ، ويأتي رجال آخرون يرفعون القمح بالقفف ويجعلونه كومات كومات كاهرامات سامقة . وكان يعج من المذراة غبار كثيف ينعقد كسحب متراكمة فوق

رؤوس الرجال ثم يحط عليهم شيئاً فشيئاً ويلتصق باجسادهم التي كانت تنضح عرقاً ويكون فوقها طبقة لزجة قذرة ، وعندما تنحدر الشمس وراء الجبل كانت أشعتها الحمراء تنفذ خلال الا شجار المحيطة بالبيدر وتستقر على اهرامات القمح فتبدو وكأنها موشاة برسوم ذهبية عجيبة تتراقص كلما هبت نسمة .وعندما تسقط الشمس وراء الجبل وتختفي الظلال كان هذا ايذاناً بانتهاء النهار ووقف العمل . فتصمت عندئـــذ المذراة عن ضجيجها ، ويفك الدرّاسون الثيران من النوارج ويسوقونها الى مرابضها ؛ ويسمع من حين لآخر جئير أصواتها كأنهـــا تحتج على شيء ما . ثم يخيم سكون حلو على البيدر وتحوم فوقه أسراب العصافير وتهب نسمات بليلة تسترخي لها أجساد الرجال المرهقة فيضطجعون على الأرض يدخنون صامتين ساهمين . عندئذ لا بد ان يظهر الافندي قادما من أول البيدر يحف به بضعة رجال . فيقف ابوه ورفاقه متهيبين بعد أن يطفئوا سجايرهم باصابعهم .

كان يكره الأفندي ، ولا يعرف لذلك سبباً ، وكثيراً ما كان يتساءل في نفسه : عجباً لهذا العجوز المعروق الوجه ، القاسي النظرات الذي يسمونه الأفندي، لما يهابه هؤلاء الرجال الاشداء ؟

ألأنه لا يضحك أبداً ، ولا يرد تحياتهم الا بتكلف . وكان الأفندي يعد كومات القمح ويقيدعددهافي دفتر يحمله في يده بينما يسير وراءه رجل يحمل بيده قطعةخشب يسمونهاالروشم يمررها على كومات

القمح التي احصاها الأفندي فتترك فوقها خطوطاً وأشكالا تشبه الكتابة، وكان حارس البيدر يطارد الاطفال ويضربهم اذا اقتربوا من كومات القمح المرشومة. وكان يرى ذلك أصيل كل يوم من أيام البيدر فلا يفقه له معنى.

وذات يوم كانت أمه مريضة. وكثيراً ما كانت أمه تمرض فتنطرح على الحصيرة اياما وحدها في غرفتهم المعتمة، وأحياناً كان يسمع الداية امسليم تقول لأبيه:

- طرحت مراتك صبياً!. لا تزعل يا بني ماله شقاء في الدنيا. العوض على الله، أنت شب ومريم صبية، الله يخلي حسين شمعة تضيء مدينة.

ويتمتم أبوه والأسى باد عليه بكلمات لا يفهمها، ثم يضع في يد أم سليم شيئاً من المال تفحصه بعينيها العشاوين ثم تدسه في عبها وهي تتبرم كأنها غير راضية. وبعد أيام قليلة كانت أمه تخرج من البيت هزيلة شاحبة تجر رجليها وتتبع أباه لتعمل معه في الحقل. وكثيراً ما كان يغمى عليها وهي تعمل فيأخذ أبوه قليلا من الماء ويرش به وجهها حتى تستفيق ثم يعود بها الى البيت وهو يشتم ويلعن الحياة والعمل بينما تظل أمه مستسلمة تتوكأ على ذراع أبيه وتجر رجليها دون أن تنطق بكلمة.

لاشك أنها الآن كعادتها تطرح ولدا ماله شقاء في الدنيا كما تقول الداية أم سليم. ويوصيه أبوه قبل أن يخرج من البيت، ان يظل الى جانب أمه لانها مريضة اكثر منها في كل مرة.

كانت تئن أنيناً متواصلا ، وتطلب منه في كل آونة ان يناولها ابريق الماء فكانت تفرغه في جوفها ثم تعود الى أنينها ، وكان وجهها يزداد شحوبا ،ويشعر بضيق وملل ،ويهم أن يتركها وشأنها ، ويذهب الى البيدر ليلعب مع رفاقه ولكنه خشي أن يضربه أبوه ، فكان يكلمها ليبدد ملله فلا ترد عليه . ثم راحت تشخر شخيراً مخيفاً . كان أبوه ، يشخر أحياناً عندما ينام ويغمض عينيه ولكن أمه تشخر الآن مفتوحة العينين شاخصة بهما الى السقف . ماذا ترى في السقف ياترى ؟ ؟

وينظر الى حيث تنظر فلا يرى شيئاً . . ثم يرتد بصره الى الأرض فيرى خطوطاً من الدم تجري من الحصيرة الى أرض الغرفة ثم تتكوم في العتبة بقعة كبيرة لزجة تنتشر منها رائحة تبعث على الغثيان .

وتصمت أمه عن الشخير فجأة بعد أن يرتعش جسمها قليلا ،وتظل عيناها مفتوحتين شاخصتين الى السقف ويتملكه هلع شديد فينظر اليها بعينين متسعتين.ويشعر بدوخة،ولكنه يقول بصوت مسموع كأنه يريد أن يؤكد ذلك لنفسه : نامت .

ثم ينسل من الغرفة على رؤوس أصابعه ويغلق بابها بتؤدة وينطلق راكضاً في الزقاق كأنه يفر من شيء يلاحقه .

ويتوقف قليلا حين يسمع صوت بياع حلاوة ينادي بصوت حنون منغم على الحلاوة الجوزية والسمسمية ، ويطف ريقه . منذ أمد بعيد لم يذق طعم الحلوى .. وكان يعرف أن بياع الحلاوة يقايض على الحلاوة

بالقمح ويركض نحو البيدر ويملأ طاقيته من أول كومة ويرتد الى بياع الحلاوة فيدفع اليه القمح ويتناول منه قطعتي حلاوة ، وينظر اليهما بفرحة وشراهة ويلحس من كل واحدة لحسة ويسير على مهل نحو البيدر . سيقعد هناك ويأكلهما على مهل ليتلذذ بهما .

كان في البيدر شغب وضجة . ويرى الأفندي واقفاً أمام كومة قمح يرغي ويزيد ويقول لمن حوله: لقد سرقت الكومة وأنا لا أزال في البيدر ويشير بأصبعه ، انطمست الحروف وانهارت الخطوط أما ان أعرف السارق أو أخصم مدين من حصة كل واحد منكم .

ويقف مبهوتا ، الآن عرف الغاية من رشم كومات القمح بالخشبة . ويحتج الرجال ثم يستعطفون الافندي ولكن الافندي لا يلين . كان هو اذن سبب هذا البلاء !.. وترتخي يداه وتسقط منهما قطعتا الحلاوة فوق التبن فلا يأبه لهما أبداً ، ويرى أباه يخرج من البيدر ، ويتجه نحو بيته وهو يبربر بشتائم لا يفهمها ، فيتبعه صامتاً حزيناً ، وما ان يدخل أبوه الغرفة حتى يحملق بأمه – التي لا تزال شاخصة بعينيها نحو السقف – ثم يصرخ : باطل عليك يامريم ! ! . . عملتيها . ثم يضرب جبهته ويبكي بصوت عال كالاطفال ، ويحس هو وكأنه يختنق . كان يريد ان يبكي فلا يستطيع ، ان الشعور بالذنب بدأ يعذبه . كان يعرف ان أمه قد ماتت ، وكان يجب عليه أن

يتألم ويبكي ويخبر أباه ولكنه لم يفعل . كان يريد ان يهرب من مأساته فراح يخدع نفسه ويتجاهل الواقع ليبعده عنه ما استطاع . . اما الآن فلم يبق أي مجال للتمويه . كان يقف مذعوراً امام الحقيقة فلايدري كيف يتصرف ، ولا كيف يتألم كأنه ضائع في متاهة وقد فاجأه فيها وحش مخيف فوقف أمامه مصعوقاً ينظر إليه بعينين متسعتين هالعتين ، يريد أن يفر فلا يقوى على الفرار .

ولايدري كيف شاع الخبر في الضيعة فيمتلىء بيتهم رجالاً ونساء، وتقول جارتهم ام بسمة لابنتها الصغيرة بسمة : خـذي حسين الى دارنا وابقي معه هناك . وتسحبه بسمة من يده فيتبعها صاغراً . وما ان يدخلا الدار حتى يشعر هو بارتياح كأنه قد فك من قيوده . . وينفجر باكياً. ما ألذ البكاء عندما يستطيعه الانسان . ويود ألا ينتهي من بكائه أبداً . وكانت بسمة تبكي معه وتمسح دموعه المنسكبة على خديه بيديها الصغيرتين، وتربت كتفه بحنان ، ويعود أبواها ، ويلاطفانه حتى يهدأ قليلاً . وينام ليلتئذ على حشية الى جانب بسمة فيشعر بشيء من الاطمئنان والرضى يتسرب الى قلبه رغم حزنه الشديد . ومنذ ذلك الحين راح يلازم بسمة وأهلها فيجد عندهم رعاية وعطفاً كان في أشد الحاجة إليها — لاسيما بعد ان تزوج أبوه — ويصبح مع الزمن لايستطيع فراق بسمة أبداً . كان يحب ان يعمل حيث تعمل هي فيخفف مرآها كل شقاء ، يلم به . ولكن الذي كان يغيظه تماماً هو ان بسمة التي تصغره بسنة واحدة كانت تبدو

شابة وكأنها أكبر منه ، وكانت تزداد مع الأيام حلاوة فما ان تجاوزت الرابعة عشرة حتى أصبحت احلى بنت في الضيعة ، قامتها مديدة وعيناها بلون العسل الصافي ، ووجهها أسمر مستدير تشوبه حمرة كرغيف القمح عندما تلفحه نار التنور . وعلى خدها الأيسر شامة بنية كأنها فلقة بن محمصة . وكان شباب الضيعة يتوددون إليها ولكنها كانت تؤثر عليهم جميعاً صديقها القديم حسين .

وذات مرة كان من عادة الأفندي ان يسخر صبيان الضيعة أيام البيدر ليحملوا أكياس القمح ويضعونها في السيارات التي ستقلها الى الأسواق . وكان حسين عندما يحمل لأكياس يتعمد أن يمر أمام بيت بسمة الذي كان قريباً من موقف السيارات ايراها في رواحه ومجيئه . وكان يرى دجاجاتها تلوب فلا تعثر على حبة قمح فكان يثقب بظفره الكيس الذي يحمله فتتساقط بضع حبات من القمح وتتراكض الدجاجات لتلتقطها ، وكم كانت تضحك بسمة لمرآها ويضحك هو ، ويكتشف الوكيل أمره فيشكوه الى الأفندي . وعقوبة الأفندي لاتتغير أبداً خصم مدّ من حصة أبيه لأنه سرّاق !

في تلك الليلة قال له صديق : إذا أردت ان تأمن شر الوكيل فماعليك الا ان تبتعد عن بسمة ما استطعت لأن الوكيل خطبها البارحة من أبيها وسيتزوجها آخر موسم الحصاد .

هذه المفاجأة حطمت آماله كلها . . لقد خيل إليه انه يسمع صريرها وهي تنسحق كحشرة تحت مداس الوكيل . . كان واضحاً لديه أنه اضعف من ان يدخل معركة مع خصمه. ويفكر ان يهرب مع بسمة فربما طاوعته على ذلك ولكنه لا يلبث ان يعدل عن رأيه هذا ، فليس سهلاً أبداً ان يفلتا من قبضة أبيها . وتبدو له الحياة في الضيعة ذليلة مهانة لا تطاق أبداً . . فليس أمامه إذن إلا الهرب منها. لاسيما وقد أصبح أبوه ـ أحب الناس اليه ـ وكأنه يضيق به بعد ان تزوج ، ودائما بينهما شيء من جفاء .

لم ينم ليلتئذ أبداً . فما أن أسفر الصبح حتى تسلل من مرقده ، وخرج من بيت أبيه وراح يركض نحو المدينة دون ان يلتفت إلى ورائه ، لم يودع بسمة ، ولم يلق نظرة على الأماكن الحبيبة اليه خشية ان يتخاذل أو يخونه قلبه فيعدل عن عزمه .

وتبتلعه المدينة . . ويضيع في خضمها الواسع كأمثاله من الكادحين . عشر سنين كاملة ، كان يكافح ليعيش . ويبلغه ذات يوم خبر توزيع الاراضي فلما تحرى الأمر وجد اسمه بين المستحقين . فعاوده الحنين الى القرية . لم يمت حبه للأرض رغم مقاومته له ، كان يزداد مع الايام عنفاً .

ويصل ساحة القرية . كان يتفحص كل ما تقع عيناه عليه . لم يتغير شيء أبداً خلال عشر سنوات سوى ان الدلبة ازدادت ضخامة

ويرى جيلاً من الاطفال يلعبون في الساحة كأنه لم يتغير أيضاً ، حفاة ، قذرين ، يرعى الذباب في وجوههم وعيونهم ، يتسلقون الدابة كالنسانيس الصغيرة . والبيوت العتيقة التي تركها وهي على وشك الانهيار لم تهبط خلال عشر سنوات مازالت قائمة باعجوبة تسند جدرانها المتداعية بعضها بعضاً .

ويسمع أصوات الرجال تنبعث من قهوة أبي نواف . ويسرع نحو القهوة . هل سيعرفونه ياترى ؟ . هل سيتذكرون حسين حمود الذي فر يوماً من الضيعة طوي العود ، ينوء بحمل حقده الكبير وخيبته المريرة ؟ . لقد عاد إليها اليوم قوي الساعدين يحمل قلباً يفيض حباً وأملا . . وينظر من نافذة القهوة . لقد شاخ الرجال الذين تركهم شبابا . ولكن هاماتهم مرفوعة أكثر منها يوم كانوا شباباً ، وفي عيونهم ألق غريب لم يعهده فيها أبداً ، ألق تنعكس فيه ـ كما خيل اليه ـ صور حقول يانعة الخضرة وبيادر طيبة المواسم . حقاً انهم لسلاطين مخفية .

ويرى أحمد زلحف يتحدث مع علي برهوم وسمعه يقول له : تعال نتعاون انا وأنت على حفر بئر بين أرضينا . ويسمع آخرين نسي اسميهما يتشاوران على شراء تراكتور . . سيجد هو أيضاً من يتعاون معه ويشعر بغصة ، لقد مات أبواه دون ان تتألق عيونهم كالآخرين ! ماتا وهما يشربان الذل كل يوم بحقد مرير صامت ! . . . ويذهب نحو

العين ليشرب جرعة ماء يدفع بها غصته ، فـــيرى أمامه امرأة هزيلة شاحبة تجر رجليها نحو العين ، لقد ذكرته بأمه ، ويتفرس في وجهها ، فاذا على خدها الايسر شامة بنية . انها بسمة ! . . . ويجد نفسه يفر من أمامهـا راكضاً ويختبيء خلف الدلبة ، كان يريد ألا يشوه تلك الصورة الحلوة التي يحفظها لها في ذاكرته . لاشك ان المسكينة كأمه تماماً تطرح أطفالاً مالهم شقاء في الدنيا .

ويقول بأسى مرير : وستموت قبل أن تتألق عيناها !



نسمة الصبا

قالت لها جدتها وقد رأتها تصفف شعرها أمام المرآة :

ـ الى أين أنت ذاهبة ؟.. الى الجامعة ؟؟ أم الى عرس ؟؟

متى كانت بنات المدارس يصففن الشعور ، ويصقلن الخدود ؟!.
كل شيء تغير آخر الزمان ! الى متى تضيقين ثوبك ؟ ألا تخافين الله؟.
ان بلاء كن يعمنا جميعاً يابنات المدارس !

لقد حبس الله عنا المطر فازداد الغلاء ، وسلط علينا الجراد ، والأوبئة ، والأجانب،ورفع الرحمةمن القلوب ، كل ذلك من جرائكن، ولا واحدة منكن تعتبر ! .

ولكن اللوم لا يقع عليك وحدك ، بل على أبيك الذيلا يستمع الى كلامي فيلجأ الى الشدة فيتقويمك . أين رجال الأمس من رجال اليوم؟!
عندما كنت في مثل عمرك رآني أبي مرة أتزين أمام المرآة — وكنت أرملة وأما لطفل — فسحبني من شعري ، وصفعني صفعة اليمة، وقال لي بلهجة مازلت أذكر قسوتها الى الآن :

لمن نتزينين يالعينة ؟؟.. أنا ما عندي بنات يمضين الساعات أمام المرايا ، أفهمت ؟

ومنذ ذلك اليوم ما عرف شعري التصفيف ، ولا وجهي المساحيق.. الله يرحمه كم كان يحسن تربية البنات .. أما أبوك فسيندم حين لا ينفعه الندم !.. صدق من قال :

هم البنات الى الممات !..

ولكن الصبية وكانت قد تجاوزت الثامنة عشرة لم تكن لتعير جدتها العجوز الثرثارة أي التفات ، بل استمرت في هندامها أمام المرآة بتأن ، ثم تأبطت كتبها وراحت تهبط الدرج ثلاثا ثلاثا ، وهي تدمدم أغنيـة شـائعة .

ولما صارت في الطريق رأت زمرة من زملائها الطلاب بادلتهم التحية ، ثم انخرطت بينهم كواحد منهم ، وراحت تسير خفيفة نشيطة والنسيم يداعب شعرها الكثيف المنسدل على كتفيها . بينما وقفت جدتها في الشرفه ترقبها من بعيد ، والغيظ والغيرة يفوران في قلبها ، ويتقدان في عينيها . كانت تقارن وهي في وقفتها تلك بين حياتها التي عاشتها تحت عبء التقاليد والقيود ، وبين الحياة الحرة الطليقة التي تعيشها بنات هذا الجيل الجديد . فاذا هي تقول في نفسها :

أين نحن من بنات اليوم ؟!. وماذا رأينا من هذه الدنيا ؟ !

الله لا يسامحك يا أبي ، ولا يسمح عنك . . لقد دفنت صباي في خباي ! ! . وحرمتني كل شيء حتى لذة القراء والكتابة التي كان يتمتع بها الكثيرات من بنات جيلي .. لا أدري والله ماذا أجداك كل ذلك ؟ .

ثم تسحب كرسيا قريباً منها وتجلس عليه وتروح تفكر . . . وكأن مرأى حفيدتها وصباها الدفاق قد أهاج فيها ذكريات بعيدة ، فراحت تمر في مخيلتها أيام صباها وشبابهـــا .. أليست ذكريات الصبا والشباب كنسمات بليلة تمر على أرض موات فاذا هشيمها أخضـــر ، وأشوا كها ورد وزنبق ؟

ولكن لم يكن لها من تلك النسمات البليلة سوى نسمة واحدة!.. راحت ترف عليها وهي في جلستها تلك ، فاذا هي في الرابعة عشرة من عمرها ، ترتدي ازارا أبيض فضفاضاً ، وعلى وجهها نقاب أسود كثيف جداً لا ترى طريقها من خلاله الا بصعوبة ، تتعثر في حواري دمشـق الضيقة وقد صحبتها أمها لتشتري لها حذاء جديداً . فلما صارتا في سوق الحميدية دخلتا دكانا لبيـع الاحذية ، ويستقبلها بائع شاب ، يبدو عليه أنه ابن صاحب الدكان . أخذ يعرض بضاعته بلباقة ، ويعدد محاسنها. ويعجبها حذاء من اللماع الاسود .

وتجلس على كرسي لتجربه ، وينحني البائع أمامها ليساعدها على احتذائه ، بينما كانت أمها مشغولة بانتقاء آخر لنفسها . فاذا البائع الشاب

يمرر يده على ساقها ، ثم يأخذ قدمها بين يديه ويضغطها قليـــلا ، ثم يهمس بعذوبة قائلا :

ـ سبحان الخلاق !... أنا على ما رأيت في هذه الدكان لم أر أبداً مثل قدميك الصغيرتين الطريتين .

وتسري فيها رعشة من لمسته الجريئة ، وتضطرب وترتبك ، ثم تسحب رجليها من أمامه وترخي عليها طرف ازارها . ويرفع رأســه ، وعلى فمه ابتسامة حلوة مغرية ويحدق اليها النظر . وانى له أن يستشف شيئاً من وراء حجابها الأسود الكثيف ؟ !

أما هي فقد رأته تماماً . وجه مستدير اسمر ، وحاجبان أسودان كثيفان ، وعينان براقتان ، وكأن برقها قـد اخترق حجاب وجهها ، واستقر على عينيها فلم تملك ان غضت الطرف وتمتمت :

ـ الله يخليه لامه .

عندما خرجت من لدنه متأبطة حذاءها الجديـــد كان يشيعها بنظرات تكاد تلتهمها التهاما ، وراحت هي تسير الى جانب أمها مزهوة منتصبة القامة ، حتى ذلك الحين لم تكن لتدرك أبداً ان لها جمالاً يدعو الى تسبيح الخلاّق .

وما تكاد تبتعد قليلاً عن الدكان حتى يمر من أمامها شاب له سمات بائع الاحذية تماماً . فاذا يدها تمتد دون وعي منها ، فترفع طرف إزارها كأنها تخشى عليه ان يتسخ من أقذار الطريق ، فتبدو ساقاها البديعتا التكوين .

ولكن الشاب الغبي لم ير ما كشف له ! . . . انما رآه شيخ بغيض الشكل ، كبير الانف ، جاحظ العينين ، صاح بها بصوت أجش ، يشبه صوت أبيها تماماً :

ـ أرخي ازارك يا بنت . الله يقصف عمر البنات ، ويجعل المئة منهن واحدة .

وتشعر كأن دلواً ساخناً يصب عليها ، فترخي ازارها وتسير منكمشة خلف أمها حتى تصلا الى البيت .

كان اليوم السابع والعشرين من شهر رجب الفضيل ، فلما صار الوقت بين الصلاتين ، صلاة المغرب وصلاة العشاء ، قعد أبوها في صدر الليوان وتحلقت حوله الاسرة بأجمعها ، وراح يتلو عليهم المعراج بصوت خاشع . فلما وصل الى قوله :

عندما صار النبي ﷺ في السماء الخامسة طلب رؤية جهنم ، فرأى فيها فيما رأى نساء معلقات من شعورهن فقال :

يا اخي يا جبريل ما خطب هؤلاء النساء المعلقات من شعورهن ؟ ؟.

ويجيبه الملاك :

هؤلاء هن اللواتي كن يظهرن فتنتهن للرجال .

ويخيل اليها عند ئذ ان اباها يصوب اليها نظرة فاحصة . فأخذ قلبها يضرب بقوة وعنف ، وتتذكر كيف داعبها البائع الشاب ، وكيف تصدت للفتى ، وكيف وبخها الشيخ . . . وتتمثل في مخيلتها صوره

النساء المعلقات من شعورهن ، فيمتلكها رعب شديد ، وتستغفر الله في سرها مرات عديدة . وتصلي العشاء ثم تأوي الى فراشها باكراً وتناقش نفسها الحساب . . . وتنتهي المناقشة الى انها لم تقصد الفتنة ابداً علم الله . فالبائع الشاب سبح الخلاّق على بديع صنع الباري عندما رأى جمال ساقيها . . . فهل من بأس يا ترى اذا سبح عباد الله الخلاّق في عليائه مبدع السوق الرشيقة ، والاقدام الصغيرة اللينة ؟ ؟ .

وعلى أساس هـــذه الفلسفة التي بدت لها منطقية جداً ، صارت تبيح لنفسها ان تحتال بشتى الطرق لتظهر فتنتها وجمالها كلما مرت بالسمر ذوي العيون البراقة ، رغم إزارها الفضفاض ونقابها الاسود الكثيف .

ويمضي على ذلك أسبوعان ، وإذا أمها تباغتها ذات صباح بسؤال:

ـ مالي أراك هكذا ساهمة شاردة ، تؤثرين الوحدة ، لا تأكلين الا قليلا ، ولا تنامين الا لماما ؟

فترتبك أمامها ، وتختلق لها اعذاراً واهية لتصرفها عما يعتمل في نفسها . وتود في صميمها لو تستطيع ان تعترف لها بالواقع . ولكن عما تستطيع ان تحدثها ؟

أعن الشوق الظامىء الى الوجـه الاسمر والعينين البراقتين ؟ . أم عن الرغبة الملحة في اللمسة الجريئة ، والهمسات العذبة ؟

كم تتمنى ان ترى متيمها بائع الاحذية مرة ثانية . . . فقد برح بها الوجد حتى لم تعـد تستطيع صبراً . فصورته الحلوة ماثلة في مخيلتها

ليل نهار ، وهمساته العذبة مازالت تتردد في مسامعها دائما أبداً ، وربما لازمها طيفه بعض الليالي حتى الصباح .

ولكن ما من سبيل الى رؤيته الا اذا بلي هذا الحذاء اللعين . . وتأخذالحذاءوتعاينه جيداً فتجده متيناً جداً تقدر لبلائه حولاً كاملاً!.

حولاً كاملاً ؟ ؟ ياله من أمد بعيد ، انها لن تصبر عليه أبداً .

وتفكر قليلاً ، فاذا اساريرها تتهلل ، ثم تقوم مسرعة وتعود الى أمها هالعة وهي تقول :

ـ أمي ! أخي الصغير أخذفردةحذائي الجديد الىالحديقة ورمى به الى الساقية فجرفتها المياه . . . ويهطل دمعها مدراراً . . وتقوم الام الى صغيرها المتهم البريء الذي لايحسن النطق تؤدبه وإلى الصبية الوالهة تكفكف دمعها ، وتعدها بالذهاب غداً إلى البائع نفسه ، عساه يرضى ان يصنع لها فردة ثانية ، وإن لم يرض فستشتري لها حداء آخر .

عندما كانت في طريقها اليه كانت تدغدغها أمان حلوة ، وأحلام عذاب ، وتقول في نفسها :

ـفي المرة الماضية سبحالخلاق ، أماهذهالمرة فسأدعهيهلل ويكبر.

ولكن لما دخلت الدكان أدركت لأول مرة في حياتها أنها سيئة الحظ ! . . لأنه لم يكن هناك فقد ذهب لبعض شؤون عمله ، وحل أبوه محله .

وما من شك أبداً أنها سيئة الحظ ، والى حد بعيد ! ! .

ففي مساء ذلك اليوم بالذات كان أبوهـــا يتناول من الشيــخ البغيض الشــكل ، الكبير الأنف ، الجاحظ العينين صرة تحوي مئــة ليرة ذهبية ـــ أم حصان ـــ هي صداق ابنته من ذالــك الشيــخ الذي كان قد أخذ بجمالها عندما صادفها في الطريق، وونجها عندما رفعت طرف ازارها ، ثم تبعها حتى عرف بيتها ، وجاء في تلك الليلة المشؤومة خاطباً لها ، راغباً فيها ، فرحب به ابوهاووعده خيراً ولـكنه أبى أن ينصرف قبل أن يدفع مهرها .

وكان ذلك اليوم آخر العهد بالحب والحبيب ! ! .

أخذت هذه الصورة من الماضي البعيد تمر في مخيــــلة العجوز متتابعة متلاحقة ، حتى اذا انتهت الى هذه النتيجة الفاشــلة اغرورقت عيناها بالدموع ، وزفرت زفرة حرى على شبابها الضائع . وعلى حياتها الطويلة التي بدت لها تافهة لاطعم لها . ثم تجرض بريقها ، وتهز رأسهـا هزات متتابعة وهي تنظر الى بعيد نظرة تائهة كأنها تقرأ سفر حياتهـا الطويل .. ويلوح لها على الشرفه المقابلة شبـح صبية فتانة القوام،وتمسح نظارتها وتعيدها الى عينيها وتحملق جيداً ثم تقول :

ـ ياسلام!هذه جارتنا أم أنطون .. والله حسبتها صبية بنت عشرين .. ولولا شالها البنفسجي ماعرفتها .. أم أنطون أكبر مني بـكثير ، ومع ذلك لا يفوتها أبيض ، ولا أحمر . .

كل النساء كذلك الا أنا ! ! . .

ومالي لا أجرب ولو مرة واحدة ؟ ؟ . .

وما تكاد هذه الفكرة تخطر لها ، حتى تسرع الى غرفة حفيدتها وتظل تعالج الادراج الصغيرة التي فيها أدوات الزينـــة حتى تفتحها ، ويبهرها ما ترى فيهـــا من علب وقوارير مختلفة الاشكال والاحجام وأدوات من معدن لماع دقيقة الصنع، لها مقابض من عاج ، وأصابع أنيقة من أحمر الشفاه ، فيها الفاتح ، والغامق ، والمائل الى الصفرة ، والمائل الى الزرقة . وهذه الآلة التي لها مقبض كالمقص وفي رأسهـــا نصف دائرة ، لقد رأت مرة حفيدتها تعالج بها أهدابها فقالت لها هازئة ساخرة:

ـأرجو ان تلقطي بؤبؤ عينيك حتى تعمي في سبيل الزينـة . هذه الآلة خطرة جداً لاسبيل الى استعمالها أبداً . ولم يعجبها من كل مارأت وعاينت سوى قارورة تحتوي سائلاً لزجا أبيض اللون قلبتها في يدها ثم قالت في نفسها :

ـ لاشك أنه المحلول الذي طلت به الماشطة وجهي ليلة عرسي . . ان له لمفعولاً سحرياً . . . وراحت تطلي به وجهها . ثم تتفرس في المرآة وتقول :

ـ والله اني أحلى من أم أنطون بكثير .

ثم تتناول ايضاً قارورة صغيرة تحتوي سائلاً أحمر براقاً ، أخذت ببريقه ، ولما فتحت القارورة صعدت الى أنفها رائحة حادة ، ورغم ذلك أخذت منه قليلاً وطلت به خديها وشفتيها . فاذا صورة بشعة تطالعها

بالمرآة ، افزعتها بشاعتها فراحت تتراجـــع الى الوراء خطوة خطوة ، واذا هي تتعثر بتمثال من رخام ـ وضعته حفيدتها قرب مرآتها ـ فتقع على الارض ويقع التمثال فوقها فيشج رأسها ويغمى عليها ! .

وفي صبيحة ذلك اليوم بالذات كانت حفيدتها الصبية ذات الثامنة عشرة تنفث دخان لفافتها الفاخرة في نادي الفروسية ، وتقول لأصدقاء لها وصديقات :

ـ لاأدري والله ماذا حل البارحة بجدتي المسكينة ؟ ! تركتها صباحاً على أحسن ماتكون ، وقرأت على رأسي وردها المعتاد . . ولما عدت من الجامعة وجدتها قد دخلت غرفتي في غيابي ، على غير عادتها فكسرت لي تمثال (فينوس القرن العشرين) الذي نحته لي صديق مثال على شكلي تماماً ، فكان وأسفي عليه تحفة فنية نادرة المثال . . ثم عبثت بأدراجي فأفسدت ترتيبها ، ثم طلت وجهها بزيت الشعر فاستنفدت القارورة الثمينة كلها ، وطلت خديها بدهان الأظافر حتى اصبح من المتعذر ازالته عن وجهها المجعد ، وهي تهذي دائما بشاب تصفه انه أسمر ، وكثيف الحاجبين براق العينين . . . وكلما رأتني تكشف لي عن ساقيها الهرمتين وتسألني جادة :

هل رأيت اجمل منهما ؟ ؟

ثم تردف قائلة أيضاً :

ألست انا اجمل من جارتنا أم أنطون ؟ !

ويقول خبيث من الرفاق :

ـ من يدري لعل نسمة بليلة من ذكريات الصبا والشباب مرت البارحة على جدتك فأودت بعقلها !

وتعلو كركرة الصبايا وقهقهة الشباب .



الدكريم

كانت الساعة قد اربت على الثالثة بعد منتصف الليل . وهـــو مايزال يتقلب على فراشه ، تنهشه همومه ، وتتناوشه وساوسه وأوهامه. يستجر النوم بالعقاقير فلا يجديه منها الا وهنـــا في أعصابه وضيقاً في صدره ، وانى له النوم وهو يتخيل هاتين العينين السوداوين اللتـــين تقدحان شرراً تلاحقانه كيفما التفت ، ان أغمض عينيه أو فتحهما ، في الظلمـــة أو النور ، تحملقان به دائماً أبـــداً ، تنظران اليه شزراً ، وكأنهما تتكلمان ، تقولان له :

ـ أنت وغد ..وغد خائن ..خائن ، أنت موال لاعدائنـا ،أنت لست منا ! أنت أشد نكراً علينا من هؤلاء المستعمرين الطغاة .

ويعض على شفتيه حتى يكاد يدميها . لم يسبق له أبداً أن وقعت عليه نظرات عينين تنطقان بكل مايضطرم في أعماق صاحبهما من موجدة ، وحقد ، وكبرياء ، كعيني هذا الثائر الشاب الذي سيق صباح هذا اليوم من سجن قلعة دمشق لينفذ به الفرنسيون حكم الاعدام في المرجة . . في ساحة الشهداء ! كان هو يقف بحكم وظيفته كنائب مدير السجن الى

جانب الضابط الفرنسي المشرف على ادارة حبس القلعة ، يراقب معه السجناء ، ومهما نسي في حياته فلن ينسى أبداً تلك اللحظة التي مر فيها الشاب صاحب العينين السوداوين في طريقه الى ساحة الاعدام ، بين صفين من الجنود شاكي السلاح لقد كان يسير وكأنه يراه الآن ، وفي كل لحظة، شامخ الرأس ، بارز الصدر ، لاتختلج في وجهه عضلة ،يرشق الضابط الفرنسي قبل خروجه بنظرة كلها تحد وتعال ، ويوجه اليه وهو واقف الى جانب الضابط تلك النظرة الشزراء التي حرمته لذيذ النوم هذه الليلة ، بعد أن أيقظت فيه أحاسيس كانت غافية ثم تنبهت كما تستيقظ الافاعي عندما يسري فيها الدفء بعد شتاء قارس طويل .

انه ليعجب كيف استطاع ان يكبح جماح نفسه في تلك اللحظة أمام الضابط الفرنسي ، وقد اخذت الرعشة تسري الى جميع اجزاء جسمه فيشعر كأن حمى داهمته ، وكأن الدم يطفر مرة واحدة الى رأسه حتى يكاد ينفر من عينيه وانفه واذنيه .

ورغم كل ذلك يظل متجمداً في مكانه متحاملا على نفسه .يسمع كلام الضباط الفرنسي ولكنه لا يعي معناه .

لقد أربى على الخامسة والعشرين من سني حياته وهو لا يذكر أبداً ان ليلة نكراء مرت به كهذه الليلة ، حتى ليلة مات أبوه وترك له اعالة هذه الاسرة الوفيرة العدد التي لا يدري كيف يتدبر شؤونها . لقد استطاع في تلك الليلة رغم همومه السود أن يغفو قليلا . أما الآن

فلا سبيل الى النوم أو الراحة،والعينان السوداوان الحاقدتان تلاحقانه وتحدجانه بتلك النظرة الشزراء !

ماذا كان يقول في نفسه هذا المجاهد الشاب وهو يوجـــه الى مواطنه نائب مدير السجن تلك النظرة الحاقدة القاسية !

ويثقل عليه هواء الغرفة ، ويزيد في ثقله حر شهر آب اللافح فيهب من فراشه ويخرج من غرفة نومه الى فسحة الدار يذرعها جيئة وذهاباً . عن يمينه غرفة ينام فيها اخوتــه الستة الصغار ، وعن يساره غرفة تنام فيها امه واختاه الصبيتان . ويتناهى الى سمعه غطيط بعضهم وهم في سباتهم العميق فيشعر نحوهم لأول مرة بشيء من الحنق والموجدة إذ لولا هذا القطيع من الأحياء النائمين الذي أخذ على نفسه رعايتـــه واطعامه لما وقع في مأزقه هذا ، ولما جفا النوم جفنيه ولما تعذب وشعر بالذل والصغار ، بل كان التحق بالثورة منذ نشوبها شأن غـــيره من رفاقه أبناء هذا الوطن الأحرار ، ولشفي غليله من هؤلاء الفرنسيين الطغاة . واذا قدر له ووقع في قبضتهم لسار الى ساحة الشرف رافـــع الرأس ، متعالياً كمواطنه الشاب المقدام الذي رآه في هـــذا اليوم يساق الى ساحة الاعدام .

ولكن من يطعم هؤلاء النيام الحالمين ؟ . أيشعرون ياترى وهم في يقظتهم بما يقاسي هو في سبيلهم ؟ !

الا يمكن أن يجد حلا لمشكلاته هذه يريحه من تبكيت الضمير ؟ أيستطيع أن يصبر على هذه الحال فيرى كل يوم مئات المآسي تمثل بابناء وطنه في سجن القلعة بين سمعه وبصره فلا يحرك ساكناً ؟ بل يضطر أحياناً أن يرائي الموظفين الفرنسيين ! يا لهذا الواقع المر ماأفظعه وما أصعب احتماله !

كل هذا في سبيل هؤلاء الغارقين في سباتهم العميق من أفراد عائلته . لقد التحق اكثر رفاقه بالثورة منذ نشوبهـــا ، ماذا يتقولون عنه يا ترى ؟ وعـــادا يتهمونه هو الذي كان يتبجـــح بالوطنية ، ويقودالمظاهرات فلا يفوته موقفواحدمنمواقفالأقدام والشجاعة..

لو ان أباه ظل حياً يرعى الأسرة التي خلفها ، لكان هو الآن أحد ثوار الغوطة الذين يتراؤون له من بعيد ، وكأنهم في جهادهم نماذج البطولة والتضحية التي أحبها وأولع بها .

ما أسخفه عندما قبل هـذه الوظيفة التي سعى له بها أحد اصدقاء أبيه بعد موته ، هذه الوظيفة التي ملأته غروراً في بادىء الأمر ، كان يشعر انها كبيرة على فتىفي مثل عمره ، فهيوظيفة مرموقة وذات راتب لا بأس به . كم كان يتملكه الزهو عندما يدخل او يخرج من باب القلعة فيقف له الجنود والحراس على طرفي الباب يحيونه كما يحيون ضباطهم ، ولكن منذ نشبت الثورة اخذ يشعر بالذل والصغار فيغض طرفه خزياً كلما دخل القلعة ، أو خرج منها . لاشك أن مواطنيه يعتبرونه واحداً

من هؤلاء العملاء الموالين للأعداء المشرفين على السجن الرهيب الذي تمثل به كل يوم افظع الجرائم وأبشعها . وتعتريه رجفة عندما يتذكر انه سيقف بعد غد موقفاً آخر أشد هولاً من موقفه اليوم . فبعد غــــد سيخرج ايضاً من سجن القلعة أربعـــة ، هم من أبرز رجال الثورة في طريقهم الى ساحة الشهداء ، حيث سينفذ بهم حكم الاعدام ، فيتأرجحون على المشانق !

ولا بد له ان يقف الى جانب الضابط الفرنسي يستهدف نظرات هؤلاء الأبطال بما فيها من لوم وتأنيب وحنق ، هؤلاء الأبطال الذين دفعوا دماءهم رخيصة في سبيل الحرية .

انه لن ينسى ابداً موقفهم اليوم عندما ودعوا أهلهم . . لقد كان احدهم يطمئن امه القروية العجوز وقد اخفى عنها خبر حكمه بالاعدام فراح يتجلد امامها ماوسعه الجلد ، لله ما أعظمه ! كيف استطاع ان يجر الابتسام الى شفتيه ويتكلف الهدوء والاطمئنان ، ويطلب منها ان تتذرع بالصبر ، كان يردد أمامها بين كل جملة وأخرى :

الله كريم يا أمي . . الله كريم . . .

ثم يوصيها بزوجه وأولاده خـــيراً ، حتى اذا انتهت الدقائق المعدودات لزيارة السجناء ، وجاء سجانه ليعود به الى زنزانته ارتفـــع نشيج العجوز وكأن قلبها قد حدثها بهول ماسيحمله اليها الغد الرهيب ، فأخذت تصرخ من أعماقها بصوت متهدج النبرات :

ـ الله كريم يابني . . . الله كريم .

وكأنها أصيبت بنوبة هستيرية ، وراح الحراس يدفعونها بقسوة وفظاظة الى خارج السجن . . . فتخرج منه ذليلة مهانة ، مجروحة القلب . . وتتالى امثال هذه الصورة المؤلمة التي كان يشهدها كل يوم على مخيلته فيزيد ذلك في ضيق صدره ، ويشعر كأن انفاسه تكاد تتقطع ، وكأن كابوساً جاثماً على صدره .

ويهدأ قليـلاً عندما يرى أشعة الفجر وقد أخذت تبعث بأنوارها مع نسمات الصبح الندايا ،ويعودالي غرفة نومه .

وبعد قليل تستيقظ امــه لتؤدي صلاة الصبح ، ثم تتبعها الأسرة ويبدأ الضجيج في البيت . لم يشأ ان يفضي الى واحد منهم بما يلم به . كان يشعر بصداع أليم لايستطيع معه ان يكلم أحـداً ، أو ان يتناول شيئاً من طعامه ، وهو يعـلم ان أمه وأختيه سيرهقنه بأسئلة لاقبل له بالرد عليها وهو في حالته تلك . فخير له إذن ان يرتدي ألبسته على عجل وأن ينسل من البيت دون ان يراه أحـد ، وان يذهب الي عمله ، الى قدره المحتوم ، الى مقر عمله البغيض في إدارة السجن .

ويصل الى السجن ، ويدخـــل غرفة عمله وهو يشعر بالقرف والاشمئزاز من نفسه ، من كل مايحيط به . لقد كانت الغرفة خالية فـلم يحن بعد ميعاد مجيء الموظفين . وأخذ يقلب الأوراق التي أمامه ، وفيما

هو يفعل ذلك ساهماً إذ لمست يده ورقة جمد نظره على أسطرها القليلة فراح يعيد تلاوتها مرات ومرات !

كانت هـــذه الورقة تبيح تسريح أربعة من السجناء العاديين المحكومين بجنـح يسيرة . ولمعت في ذهنه فكـرة خاطفة جعلته يردد بصوت مسموع :

يالها من سانحة مواتية ، . . فرصة نادرة . . استطيع ان اعمل شيئاً يريحني مهما كان بعده من تضحية . . ان ما أفكر به الآن ممكن عمله والنجاح فيه اذا استطعت ان أسيطر على أعصابي وأحكم تدبير الأمور فاليوم يوم جمعة ومدير السجن لا يأتي الى عمله ، وسأنوب انا عنه في كثير من الأمور ، كما ان كثيراً من الموظفين لايداومون على وظائفهم في مثل هذا اليوم . . فما أيسر عـــلي ان أخرج بموجب هذه الورقة الزعماء المحكومين بالاعدام بدلاً من السجناء الأربعة العاديين ، ثم أفر بهم الى الغوطة معقل الثوار وليحدث بعد ذلك مايحدث ! .

وشعر بشيء من برد العزاء يسري الى نفسه بعـــد تلك الليلة المرهقة التي قاسى مضضها بالأمس ، وينقلب مافيـــه من فتور وقلق ، واشمئزاز الى حماسة ، وحزم ، وعزم ، وراح قلبه يبتهج فيزيـــد في اقدامه واندفاعه ، لقد نسي كل شيء ، نسي أسرته الكبيرة ومايننتظرها من أهوال بين يدي الفرنسيين بعد فراره ثم ماينتظرها ايضاً من جوع وتشرد فليس هناك من يعول الأسرة غيره ، ثم ماينتظره هو من هول اذا فشلت مغامرته الجريئة ولكنه كان يردد في أعماقه :

أما ان أنجح وأرضي نفسي وما يثور بها ، واما ان أعدم مع هؤلاء المجاهدين الأربعة . اليس لهم أسر يعيلونها أيضاً ؟!. ويرضي ضميره ، وتطمئن نفسه ، فيعمد الى عمله يؤديه كعادته تماماً، ثابت الجنان هادىء السمات ، لا يبدو على وجهه أي انفعال . ولقد وطد العزم على المضي بهذه المغامرة الخطرة ولن يثنيه عن عزمه شيء .

كانت أول ورقة قدمها للضابط الفرنسي للتوقيع هي هذه الورقة التي تبيح اطلاق سراح الأربعة من السجناء العاديين . ولما كان وقت الظهيرة انصرف الضابط الفرنسي الى داره ليغيب ثلاث ساعات كما هي عادته.

راح هو يفكر ليعد مغامرته الخطرة ، لأنه يتحتم عليه أن ينجزها خلال هذه المدة القصيرة . كان عقله يعمل بنشاط غريب ، واقدام لا يعهده بنفسه أبداً . بدأ أولاً يحتال على صغار موظفي السجن فيشغلهم بأمور تافهة تبعدهم عن غرفة المحكومين بالاعدام ، ثم يرسل الموظف الموكل اليه تدقيق أوراق المسرحين من السجناء بمهمة خارج السجن . وكان من تقاليد السجن أن يعزل المحكومين بالاعدام في غرفة خاصة تقفل بمفتاح غليظ يعلق على جدار الغرفة التي يشغلها هو ورئيسه الضابط الفرنسي ، ويقف على بابها ديدبان يحرسها دائماً أبداً ، فيتناول هو المفتاح من مكانه في غفلة الديدبان ، ثم يضمه في جيبه ويسير بخطى ثابتة في الممر الطويل الذي يؤدي الي الغرفة المعزولة ، ثم يفتح الباب بتؤدة ويدخل الغرفة، ويغلق بابها وراءه ، وينظر السجناء اليه غير مبالين به ،

ولكن سرعان ما تنقلب لا مبالاتهم اهتماماً عندما يسر اليهم أن يتبعوه فقد هيأ لهم سبل الفرار ، والوقت ضيق جداً، لا يستطيع أن يشرح لهم التفاصيل ، كل ما يرجوه منهم هو أن يسيروا من خلفه سيراً طبيعياً لا يلفت النظر ، حتى إذا حالفه التوفيق وخرج بهم من باب السجن وأوصلهم الى الطريق كان عليهم أن يسيروا متفرقين ولكن باتجاه واحد حتى يلحق بهم بعد هنيهة ثم يتولى أمرهم ، فهم غرباء عن دمشق لا يعرفون دروبها ومسالكها ، وما أيسر أن يقبض عليهم مرة ثانيـة . وتذهلهم المفاجأة فما ينطقون بكلمة واحدة بل يسيرون من خلفـــه كما أمرهم ، وكأنهم في غيبوبة .

فلما وصل الى باب القلعة سأل الحراس عن الموظف الموكل اليه أمر تدقيق أوراق المسرحين – وكان قد أرسله في مهمـــة خارج السجن – فأجابوه انه لم يعد بعد . فأخذ يبرر بكلام يفهم منه أنه ساخط عليه ، لأنه تأخر أكثر ممـــا ينبغي ، واصبح هو مضطراً أن يقوم بوظيفته أثناء غيابه .

ثم يدفع اليهم الورقة الممهورة بامضاء الضابط الفرنسي والتي تبيح تسريح أربعة سجناء محكومين بجنح يسيرة . ثم يأمرهم أن يفتحوا الباب أمامهم . فلم يخامر الحراس أدنى شك في أمره .

ويفتحون باب السجن .. ويخرج الأربعة وهم أشد ما يكونون دهشة من هذه المفاجأة التي ما كانت لتطوف لهم باحلامهم ، لا يكادون يصدقون

أنهم حقاً قد أصبحوا في عرض الطريق أحراراً طلقاء ، وأنهم قد تخطوا سجنهم الرهيب ، وفروا من الموت بعد أن باتوا بين شدقيه .

ويعود هو الى غرفتـــه فيعلق المفتاح في مكانه . ثم يخرج مسرعاً ليلحق بهم .

كان مسيره معهم في الطريق مضحكا محزناً ، مرة يسرع ومرة يتئد ، تارة يقترب منهم ليسر اليهم بكلمات خاطفة يرجوهم ان يملكوا أعصابهم فلا يبدو عليهم ما يلفت النظر اليهم ، ثم يبتعـــد عنهم خشية أن يراهم من يعرفهم أو يعرفه .

كان قد قرر فيما بينه وبين نفسه أن يذهب بهم الى تاجر معروف ، له مخزن من خلفه مستودع قريب من سجن القلعة . وكان صاحبه هذا معروفاً بالوطنية ، والحماسة للثورة ، وطالما تشدق أمام الناس بـ تتطلبه الوطنية من تضحية وبطولة ، ورأى أن يقص عليه القصة ، يرجوه أن يأوي هؤلاء الرجال الأربعة في مستودعه مدة ساعة فقط ريثما يجـــد عربة يثق بسائقها ليدبر معه أمر فرارهم جميعاً الى رحاب الغوطة .

ويزوي الرجل ما بين عينيه وتربد سحنته فيصبح وجهه جامـدا كوجه مراب عتيق . ويقول له بفظاظة :

ـ ابعد عن دكاني أنت ومن معك !. ان ما تطلبه مني شيء مخيف ، وراؤه مشنقة وخراب بيت . وأنا لست مستعداً لـكل ذلك !.

ولأول مرة يعرف نائب مدير السجن كيف تميد الأرض تحت القدمين .. وكيف ينخلع القلب . وكيف يتشدق المارقون بالوطنية .

تمنى لو أن معه سكيناً ليغمدها في صدر هذا الدعي . ولكن لا سبيل الآن حتى الى توجيه كلمة لوم اليه .. ويكظم غيظه ثم ينصرف من أمامه وهو يهز رأسه ويقول في نفسه :

سيكون لي شأن مع هذا الخائن في يوم الأيام .

ويتبعه الرجال واجمين مطرقين ، وقد شعروا بحراجة الموقف، ويتملكهم الرعب كما لم يتملكهم أبداً . ويفكر هو في الامر وقلبه واجف مضطرب،ويسائل نفسه الى أين يذهب بهؤلاء الفارين المحكومين بالاعدام الذين يسيرون خلفه متمهلين على غير هدى ، كأنهم مسلوبي الارادة .. وعرضت له فكرة لعل حراجة الموقف هي التي هدته اليها :

لم لا يذهب بهم الى الجامع الأموي ؟ ان بيوت الله لا تضيق بأحد من الناس .. سيدعهم هناك ريثما يدبر عربة يثق بسائقها .

ويتجه نحو الجامع وهم من ورائه،ويشير اليهم ان ينتظروه في مشهد الحسين ريثما يعود اليهم بعد قليل .

وينطلق مسرعاً الى ساحة المرجة حيث تقف عربات الأجرة . كان يضرع الى الله ان يجد الاسطى عبد الفتاح في مكانه المعهود ، فقد اعتاد أن يستأجر عربة هذا الحوذي العجوز كلما احتاج الى عربة

شفقة عليه ، حتى نشبت بينها مودة وصداقة ، انه يعرفه تمام المعرفة رجل طيب صادق ، واحد من أبناء هذا الشعب البسطاء الحاقدين على المستعمرين .وكأنه أصبح على مثل اليقين بأن الرجل لن يرفض طلبه، ولن يكون كذلك التاجر الوغد الذي يتاجر بالوطنية فيما يتاجر به من سلع .
ولكن المصيبة الكبرى هي الا يجد الاسطى عبدالفتاح في مكانه الذي اعتاد أن يقف فيه . كيف سيأمن غيره على هذه المهمة الخطرة ؟ ويسرع الخطى ويبدو له سوق الحميدية طويلا لا آخر له ، ولما يشرف على ساحة الشهداء يلوح له صف العربات المتحلق حول النصب التذكاري القائم في وسط الساحة فيتفحصها من بعيد ، وتنبسط أساريره لما يلمح العربة المهترئة وقد جثم على كرسي القيادة فيها صاحبه العجوز ، كومة بؤس سوداء ، محني القامة ، قد انغرز رأسه بين كتفيه ، ينتظر رزقه بملالة وسأم .ويقفز الى العربة ويستوي على مقعدها الخلفي ، ويلتفت اليه الحوذي مرحبا به ، فيقول له باقتضاب: خذني الى مكان خال ، أريد أن أتحدث اليك بكلمتين هامتين . ويجيب السائق دهشاً :

ـ تريد ان تتحدث إليّ ؟؟ ! أمرك يابيك .

ويلسع بسوطه ظهري الجوادين ويوجهها نحو طريق دمر وبعد قليل يوقف العربة تحت صفصافة كثيفة الاغصان ، ثم يلتفت الى الراكب فيها فيشير اليه هذا بأن يأتي الى جانبه ، ويمتثل السائق لأمر زبونه والدهشة تملأه ، لأنه لايجد تفسيراً لما يطلبه منه ، ماعساه يريد ان يفعل ياترى ؟

ولما جلس الى جانبه قال له بصوت خافت وعلى وجهه علائم الجد :

ـ هل علمت يا أسطى عبد الفتاح ان الفرنسيين قد حكموا بالاعدام على مصطفى الخليلي من زعماء الثورة في حوران ، وعلى فندي أبي ياغي من ثوار جبل الدروز ، وعلى عـــلي بصلة ، وأحمد المحمود من زعماء الثورة في قرية داريا ؟ ! .

ويجيب السائق العجوز والدهشة لا تفارقه :

ـ ومن لم يعلم بذلك ؟ . . البلد كلها مضطربة من أجلهم ! .

ـ غداً سينفذ بهم حكم الاعدام في ساحة الشهداء ! .

ـ يعملوها الكلاب ! . . الله يخرب بيتهم . . ثم يرفع يديه إلى السماء ويقول : الله يهد جبرك يافرنسا ! .

ويقبض نائب مدير السجن على يد الحوذي العجوز ويحـدق الى عينيه ثم يقول له : انتبه لكلامي ،

لقد استطعت بحكم وظيفتي في السجن ان أخرجهم منه قبل ساعة وهم الآن في الجامع الأموي ، ونريد عربة تنقلنا إلى الغوطة قبـل مضي ساعة وإلا انكشفنا ، . . وانت تعرف ماسيؤول اليه أمرنا . فهل أنت على استعداد لمساعدتنا ؟

ـ الله يخليك يابيك . . وهذه تحتاج الى سؤال وجواب ؟ ؟ من عيني الاثنتين ، هيا فالوقت ضيق .

ـ سأدفع لك قدر ماتريد .

ـأخ . . . طعنتني ! . . الله يسامحك ... اتريدني ان آخذ أجرة على واجب أتحرق دائما على أدائه ؟ . . . انا والله العظيم اتمنى دائما ان أجد فرصة أخدم بها أمتي وبلادي وقد جاءت الآن على رجليها فأنا أسعد الناس، والله لو فيَّ قوة وشباب لالتحقت بالثورة من زمان ، ولتركت العيال على الله ، رب العيال يدبر العيال ، ولكن العين بصيره ، واليد قصيره ! ماذا يفعل الثوار بعجوز مثلي ؟ . البركة فيكم ياشباب . .

هيا .. أي طريق تريدني ان أسلك ؟ ، دمشق كما تعلم أصبحت معزوله عن الغوطة . في كل طريق استحكام وعسكر ، حتى حي المهاجرين أصبح معزولاً أيضاً .

ـلاعليك أنت، انا سأدبر الأمر . سر بنا أولاً الى الجامع الأموي لنأتي بهم .

ـ انا تحت أمرك . ويقوم الأسطى عبد الفتاح ويجلس أمام مقود العربة وتبدو قامته منتصبة متحدية كأنه يقود معركة ثم يشرّع سوطه ويلوح به في الهواء ثم يهوي به على ظهر الجوادين صارخاً من أعماقه :

ـياستار، يا كريم.

وتسرع العربة نحو الجامع الأموي ، وماهي إلا دقائق قليلة حتى كان الثوار الأربعة قد انحشروا في العربة مع منقذهم نائب مدير السجن،

وكان هذا وحده يدرك انه مازال أمامهم عقبة كبرى اذا استطاعوا أن يتخطوها فقد كتب لهم النجاح .

كانت آمن الطرق حينئذ الى الغوطة هي طريق حي الاكراد، ولا بد لمن يسلكها ان يمر أولاً بمخفر الجسر الابيض القائم على سفح قاسيون ، وكان هذا المخفر اذ ذاك هو الحد القائم بين مدينة دمشق ، ومنطقة الثورة قد حول الى استحكام اشبه مايكون بحصن مسلح أقيمت فيه المتاريس ، ونصبت على أطرافه المدافع الرشاشة ، ووقف على منافذ الطريقين اللذين يتصلان به حرس فرنسيون ، وسنغال مسلحون يفتشون المارة ويطالبونهم إذا — اشتبهوا بهم — أن يبرزوا أوراقهم التي تثبت شخصياتهم . وكان نائب مدير السجن يمر كل يوم بهذا المخفر ، عندما يغادر داره القائمة في أقصى الجسر ذاهباً الى عمله في كل صباح ، أو عندما يعود اليها في كل عشية حتى عرفه الحراس وعرفوا أنه من موظفي الحكومة وقامت بينه وبينهم مودة ، والفة . فكان يتحدث إليهم بالفرنسية ويبادلهم التحية كلما مر بهم .

ورأوه هذه المرة يجتاز الطريق في عربة ومعه رجال قال لهم أنهم مدعوون عنده ، فلم يترددوا في أن يفسحوا الطريق له ولضيوفه شأنهم معه في كل مرة .

وتمر العربة بسلام ، وتبدأ أعصاب راكبيها تسترخي قليلاً قليلاً بعد ان كانت كأوتار مشدودة .

ولما اجتازت منطقة الخطر الاخيرة كان بطـل قصتنا نائب مدير السجن السيد زكريا الداغستاني يمط رقبته ليلقي بنظرة أخيرة على داره القائمة على الحد الاقصى من الجسر ، من يدري ربما لا يعود اليها ، ولا ينعم بدفئها ابداً ، قد يدفن في أرض الغوطة مع من يدفن كل يوم من المجاهدين .

وتجول في عينيه دمعتان عندما يتصور أمـــه الطيبة ، وأختيه اليافعتين ، وإخوته الصغار وهم ينتظرون أوبته هذه الليلة دون جدوى ، ثم كيف سيقتحم عليهم الفرنسيون دارهم ليسألوهم عن رب أسرتهم أين ولى ؟ ؟ . . وكيف سيتحملون العذاب والاهانة ، والجوع والتشرد؟!. ترى هل ستغفر له أمه فعلته هذه ؟ ؟ .

ولم يشعر أنه أحبهم كما يحبهم في تلك اللحظة ، لقد عرف ساعتها كيف يذوب القلب لوعـة وحنانا . وتنحدر الدمعتان الساخنتان على وجنتيه فيمسحها بيده ، ثم يجد نفسه مدفوعاً بغـــير ارادته لأن يردد بصوت عال ماسمعه البارحـة في السجن من تلك القروية العجوز وهي تودع ابنها الماثل أمامه الآن فتقول له وتردد ملء صوتها :

الله كريم . . . الله كريم .

ويردد الرجال الأربعة معه دون وعي منهم :

الله كريم . . . الله كريم .

وتتلاشى الاصوات بين جلجلة العربة ، وصوت حوافر الخيل وهي تنهب الارض في طريقها الى فراديس الغوطة وجناتها ، حيث كان التراب يجبل كل يوم بالدم الذكي .

خيط العنكبوت

رهجة أحلى بنات ضيعتنا

حمرة خديها لاترى على التفاح

لون عينيها كخضرة الربيع في حقولنا

شفتاها حبتا كرز على غصن ريان

ضفائرها سنابل قمح ناضجة في موسم خير

وهكذا كان شباب القرية يفتنون بوصف رهجة كلما كان ابن عمها حمدان غائباً عنهم . وما أكثر ما كان يغيب حمدان ساعياً وراء رزقه الضيق في القرى المجاورة أو في المدينة .

وذات أصيل كان الشباب مجتمعين حول العين يتفرجون على بنات الضيعة وهن يملأن جرارهن - على جري العادة في القرى - إذ تقبل رهجة تحمل جرتها على كتفها وتتهادى في دلال ، فتستأثر وحدها بنظرات الشباب اللاهبة ، وتتيه على لداتها ، فتشتمل الغيرة في قلوبهن جميعاً .

لم تكن - وهي التي لم تتعد السادسة عشرة بعد - قد أعطت قلبها لواحد منهم . كان يحلو لها ان تخص كل واحد منهم بابتسامة أو نظرة

تتوهمه انه وحده المفضل لديها . فينتهز الفرصة ليداعبها بكلمة غزل ، أو بإشارة ذات معنى لا يدرك معناها غيرنا .

واذا حمدان يظهر فجأة على غير انتظار منهم ، فيكفون عن النظر الى رهجة ، وعن التحدث عنها فيما بينهم ، فليس التورط مع حمدان بالامر السهل .

وكان حمدان يبدو يومئذ متجهم الوجه ، مشغول البال ، وكأنه يحبس كلاماً في فمه ، وينتحين فرصة مواتية ليجهر به . فلما انصرف آخر بنت عن العين ، وهم الشباب بالرواح ، صرخ فيهم حمدان بلهجة لاتخلو من التهديد والوعيد :

ــ اسمعوا ياشباب .

ويتلبث الشباب قليلاً ، ويسأل بعضهم بعضاً .

ــ وماذا يريد حمدان منا ؟

وإذا هو يتوسطهم ، وبيده خيزرانة ثخينة يلوح بها عابثاً ويقول :

ــ أنا غداً مطلوب الى العسكرية . . وسأغيب عن الضيعة سنتين كما تعلمون ، فو الله العظيم كل من سولت له نفسه ان يغازل بنت عمي رهجة ، أو يحاول أن يؤثر على عقل عمي الشيخ ليخطبها منه ، فليحمل كفنه تحت أبطه من اليوم .

رهجة بنت عمي . . أنا أحق الناس بها ، ولي حق ان أخطفها من جلوة عرسها فليعرف كل واحد منكم حده .

ثم يحملق بهم واحداً واحداً بنظرات متحدية ، جعلتهم ينكمشون على أنفسهم ولا يحرون جواباً .

الا احمد سمور الذي انبرى من بينهم وقال :

ـ هذاشي معروف ياحمدان، طمن بالك.. ولو!. هل ماتت النخوة فينا؟

وينصرف الشباب مقهورين . ولكن من يستطيع ان يعترض ؟ والضيعة كلها تعرف ان حمدان اذا قال فعل . وعدا ذلك فقد نطق الرجل بالحق ، فالعرف والتقاليد الموروثة تعطي ابن العم حقا في الزواج من بنت عمه ، وما كان لأبي رهجة الشيخ علي إمام الجامع ، وهو الحريص على تلك التقاليد والبقاء عليها ان يخل بها ، أو يكسف ابن أخيه امام الناس ، ولو كان في صميمه غير راض عن هذه الخطبة لأن ابن أخيه حمدان فقير ، لا يعتمد في أمور معاشه الا على ساعديه القويين .

أما أحمد سمور الذي انبرى وحده من بين الشباب جميعهم ، وطمأن حمدان على بنت عمه في أثناء غيابه في الجندية ، كان أكثر الشباب افتتانا برهجة والتياعا عليها . لقد كان أقرب جار الى بيتها ، لا يغمض عينيه كل يوم الا على خيالها ، ولا يفتحها الا عندما يسمع صوتها المرح وهي تنادي دجاجاتها وتنثر لها الحب ، فكان يقفز الى السطيحة التي تشرف على بيت رهجة ، ويبادلها ، تحية الصباح قبل أي أنسان ، ويملأ عينيه من جمالها.

عشقها حين كان فتى يافعاً ، وهي طفلة صغيرة ماتفقه شيئاً ، فكان يلاعبها في البيدر ، ويقطف لها الثمرة الشهية ولو كانت في اعلى الشجرة، ويحملها على كتفيه كل مساء عندما يعودون من الحقل الى البيت، يغني لها العتابا

والميجانا. ولما كبرت قليلا صار لا يرقص الدبكة في الافراح والاعياد إلا معها..
وكان يقعد لصقها في أمسيات الشتاء عندما يسمر اهلها حول الموقد .

ولكن أباها صرفه عنها ذات يوم بالحسنى حين قال له :

ـ اصبحت يا بني شابا ، ولا يجوز لك ان تلعب مع البنات او تدخل بيوت الناس دون استئذانهم .

ولما حاول بعد ذلك ان يكلمها في غفلة عن أبيها أشاحت وجهها عنه ، فأدرك ان اباها ، وهو المعروف بتزمته وصرامته ، قد حرّم عليها التحدث معه كما كان شأنها دائما . ولما كانت تخشى أباها ، وترهبه كثيراً ، كان لابد لها ان تتصرف معه كما تصرفت الآن .

ويكتم احمد سمور حبـــه في قلبه وراح يوهم نفسه بأن رهجة تحبه هو وحـده ، دون غيره من شباب الضيعة ، لأنه أليف طفولتها ، ورفيق صباها ، وأقرب الجيران اليها ، وان اشاحت اليوم عنه فلأنها لاتزال صغيرة ماتفقه من الحب شيئاً ، فمتى كبرت واشتعلت جذوة الحب في قلبها ، فلابد لها ان تتحين الفرص لمبادلته ذلك الحب مهما كان أبوها حذراً في مراقبتها .

ويسرف احمد سمور في أحلامه فيخادع نفسه ويطمئنها ، ويمنيها بالأمنيات الحلوة .

ولكن الذي لم يكن بالحسبان ابداً هو ابن عمها حمدان هذا الذي كان يغيب عن القرية ساعياً وراء رزقه شهوراً تلو شهور ، واذا عاد اليها

لا يمكث فيها الا يوما او بعض يوم ثم يعود الى غيابه حتى كاد ينساه أهل القرية . . . فلما اينعت رهجة كثمرة شهية جاء يقطفها ويحرمه منها .

ولكن احمد سمور لم ييأس . . . ومتى كان اليأس يدخل قلوب العشاق ؟ ؟ لا بد لهم دائما ان يتعلقوا بخيط أمل ، ولو كان أوهى من خيط العنكبوت ، وهكذا فعل أحمد سمور ، كان يردد في نفسه ويقول:

من يدري ماذا يحدث في سنتين ؟ ؟

بعض الناس قد لا يعودون من الجندية أبداً .

وتمر الأيام تليها الشهور وخيط العنكبوت يتأرجح في قلب أحمد سمور فيبدل خيبته أملاً ، ويأسه رجاءً .

ويصبح الشيخ علي احرص مايكون على مراقبة فتاته ، فلا يدعها تغيب عنه طرفة عين ، حتى حرّم عليها الذهاب الى العين كل أصيل لتملأ الجرة كغيرها من بنات الضيعة كي يبعدها عن عيون الشباب والذهاب الى العين هو السبيل الوحيد للتسلية والترفيه عند بنات القرى .

ويظن أهل القرية ان الشيخ مافعل ذلك الا حفاظاً على عهد ابن اخيه حمدان .

لكن بعض الخبثاء منهم كانوا يلاحظون ان الشيخ يكثر من الذهاب الى دمشق صحبة ابنته فيغيبان فيها بضعة ايام ثم يعودان وفي كل مرة كانت رهجة تحمل معها شيئاً جديداً ، ثوبا من مخمل ثمين ، أو حذاء لماعاً ، او سواراً ذهبياً مماهوفوق طاقة الشيخ . . . ويتسرب

الشك الى نفوسهم فيقدرون ان هناك امراً يدبر في بيت الشيخ ، يحوطه أهل البيت بالكتمان الشديد ، وكم حاولوا ان يستجروا الكلام من فم زوجة الشيخ ولكنها كانت رغم غباوتها المعروفة بهاأدهى من أن تورط.

ويصبحون ذات يوم على خبر تقوم له الضيعة ولا تقعد أبداً . .

انالشيخ علي إمام الجامع سيهجر الضيعة غداً الى غير رجعة . . فقد غدر الشيخ بابن أخيه حين رضي ان يخطّب ابنته من احد تجار دمشق الأثرياء وسيسكن معها في دمشق عندما يزوجها منه .

وجن شباب القرية غيظاً . . لقد رضوا ان يتزوجها ابن عمها حمدان لأن العرف والتقاليد يفرضان ذلك اما ان يأتي غريب عن القرية فينتشلها من بينهم ويحرمهم من رؤيتها طول العمر فهذا مالا يرضون به أبـــداً .

وكان أحمد سمور أشد الشباب غيظاً وحنقاً وموجدة . . . جمع الشباب حوله وقال لهم :

ـاذا غاب عنا حمدان هل يجوز ان نسكت عن حقه ياشباب ؟ ؟ هل ماتت النخوة فينا ؟ ؟ .

ويسأله سائل منهم :

ـوماذا تريدنا ان نفعل ؟ أليس الشيخ حراً؟ يزوج ابنته بمن يشاء ومتى يشاء ؟

ويرد عليه بنزق :

ـ لايا أخي ليس هو حراً أبداً . . . هـــذه عاداتنا مشي عليها آباؤنا وأجدادنا ونحن لن نحيد عنها شعرة . . . سنخطف رهجة .

ــنخطف رهجــة ؟ ؟ نخطف رهجـــة ؟ ردد الشباب دهشين مستغربين ! ! .

ويقول أحمد سمور بتحد :

ـ نعم نخطفها . . . وماذا يحدث اذا خطفناها ؟ وماذا يستطيع ان يفعل أبوها الهرم الغدار ؟ . . سنخطفها ونضعها في بيت مافيه رجال ، عند العجوز أم ديب مثلاً ، ثم نحرس البيت كلنا ولا ندعها تبرحه أبداً حتى نرسل الى حمدان من يخبره وهو يعرف كيف يدبر أمره مع عمه.

ويتفكرون قليلاً ، ثم يستجيبون لرأيه مرة واحدة دون اخـذ أو رد . لقد صادف رأيه هوى في نفوسهم جميعاً جعلهم يركضون نحو بيت الشيخ ، وفي أعماق كل واحـــد منهم حافز يحفزه على الركض ، لايدري ماهو ولكنه يوهم نفسه ويقنعها أنه نصرة الحق على الباطـل ، والنخوة التي لاتموت أبداً ، كما يقول أحمد سمور .

ويقتحمون دارالشيخ على أهلها، فاذارأوا الشيخ راحوا يعنفونه، ويؤنبونه على غدره بابن أخيه ونقضه عهده .

أما احمد سمور فما ينطق بكلمة واحدة ، كان همه الوحيد هوأن يخطف رهجة .

وينقضّ عليها كما ينقض نسر على فريسته ، ثم يحملها على ساعديه القويين كما كان يحملها في الحقل وهي طفلة صغيرة . وكانت رهجة أضعف من أن تقاوم قوته المسعورة بعد أن أذهلتها المفاجأة فاستسلمت اليه دون أي مقاومة .

ويخرج احمد سمور من بيت الشيخ وهو يعدو بحمله الثمين ويضم الحبيبة الى صدره فما ترتوي نفسه اللهفانة ، أما فمـــه فكان يكيل لها السبــاب :

ـ ياعادرة ! . . ياخائنة ! . . غرك المال خنت عهود الحب والوفاء !.. أما نحن فما ماتت النخوة فينا .

ويشدها الى صدره حتى يكسر أضلاعها وهو يردد : فهمت ؟ ؟ . . ما ماتت النخوة فينا . . سنحبسك حتى يعود حمدان ويعرف شغله معك .

وفي أعماقه كان يتأرجح خيط العنكبوت :

« بعض الناس قد لا يعودون من الجندية أبداً »

مات قرير العين

كانت دارة أنيقة تلك التي يسكنها المسيو (غوليه) وزوجه ، تحتضنها اشجار يانعة الخضرة ، متمردة الاغصان ، وتنبسط أمامها حديقة واسعة الاطراف بعيدة المدى وكأنها مزرعة كبيرة تمتد حتى الشاطىء العاجي الذي تنتهي عنده المدينة البيضاء ، مدينة الجزائر .

وكان في أقصى هذه الحديقة الواسعة كوخ رث المنظر ضيق الاطراف يسكنه الناطور (عبد الجبار) وزوجه الصبية (زينب) .

كان الليل يبدو وحشي الظلمة في جوانب الحديقة الواسعة ، يزيد في وحشيته صدى همهمة الاشجار الضخمة عندما يختلط بهدير الأمواج على الشاطىء القريب .

وكانت الأنوار التي تشع من الدارة الأنيقة ترسم حولها هالة لا تلبث أن تتلاشى قبل أن تصل الى الكوخ الكئيب المرتمي في العتمة.

وكان ساكن الكوخ يقعد في تلك الليلة صامتاً حزيناً ينفث باستمرار دخان تبغه الرخيص كأنه يحاول أن ينفث همومه عن صدره ،

ولكنها لا تلبث أن تعود وتتراكم فوق رأسه ، سحابة سوداء تهبط عليه ببطء حتى تكاد تخنق انفاسه .

كان الضوء الهزيل المنبعث من قنديل الزيت المعلق على الجدار يلقي على وجه (عبد الجبار) ظلا باهتاً فتبدو سحنته مربدة ، رمادية اللون ، كثيرة التجاعيد ، كقطعة طين شققها الجفاف . أما عيناه الكليلتان فكانتامتجهتين الى زاوية الغرفة ترقبان بكثير من الهلع زوجه (زينب) التي تكومت على نفسهاحتى بدت له كصرة ثياب عتيقة ممزقة ، واخفت وجهها في وسادة وراحت تبكي بلا انقطاع . كان صوتها يعلو أحياناً حتى يصبح عويلا ثم يعود فيخفت حتي يصبح نشيجاً مريراً تقطعه حسرات وزفرات . كان (عبد الجبار) ينظر اليها بأسى وهو يتحرى عن كلمة يواسيها بها ، أو على الأقل يشعرها بمشاركته لها في حزنها ، ولكن شيئاً ما كان يلجم لسانه . كان ينتابه منها في تلك الليلة خوف شديد لم يشعر به تجاه أي انسان مدى حياته وقد تجاوز الستين من العمر ، كاد يمضي الليل وزينب لم يشح دمعها .

قال لها أخيراً بصوت خفيض مرتجف حاول جهده أن يكون رفيقاً رحيما :

ـ ارحمي نفسك يازينب ، كفاك بكاء !. انّا لله وانّا اليه راجعون. هذه ارادة الله . لقد قتل من قبل أبوك في الجهاد ، وأخوك الكبير ، وابن عمك . وكثيرون غيرهم من أبناء هذا البلد فلم أرك تبكين كما تبكين اليوم على أخيك احمد .

وتكف المرأة عن البكاء وهي تصغي اليه ، وقسماتها تضطرب ، وعيناها تقدح شرراً ، وكأنها تتحفز للكلام بعد كل جملة كان ينطقها ثم تقاطعه بصوت مبحوح جاف :

ـ ولكن احمد مات في السجن !! أتدري أنت يا من تعمل عند الفرنسيين ما معنى مات في السجن ؟ ؟ يعني مات من التعذيب والتشنيع. ثلاث سنوات كاملات وهذا الصغير يقاوم قساوة هؤلاء الجناة دون أن يلين لهم.

ترى أي ميتة اختاروها لك يا أخي ياحبيبي ؟ !

أمت تحت ضرب السياط ولذع النار ؟ أم مت معلقا من قدميك بعد أن نزعوا أظافرك ، ومثلوا عينيك ؟

وتتقدم من عبد الجبار ثم تهزه بعنف وهي تقول له :

ـ أتحسب أنني كنت أرضى أن أبقى هنا الى جانبك أعمل في هذه الحديقة وماىليها من حقول أخدم الفرنسيين لو لم يعدني (غوليه) بأنه سيسعى ليخرج أخي من السجن . سيدك (غوليه) ، هذا الرجـــل اللئيم الوضيع الخدّاع ، الذي تسميه أنت بالرجل الطيب ، وتصدق أنه يعطف على قضيتنا ، قضية الجزائر . كان الخنزير يقول لي كلما رآني :

بعد أسبوع فقط سيخرج أخوك من السجن . .

ومضت ثلاث سنوات ، يعلم الله كم عذبني الانتظار ، كنت أتعلق بخيط واه من الأمل ، أوهى من خيط العنكبوت ، وأخشى دائماً أن

ينقطع ، فأسعى جهدي لارضاء (غوليه) وزوجه العاتية . ولكنه لم يف بما وعد . ويقيني انه لم يفعل من أجل أخي شيئاً ، وكان باستطاعته أن يفعل كل شيء . كان الاثيم يضحك علي ! رحمة الله عليك يا أبي ! كنت أعرف بهؤلاء الفرنسيين الخائنين منا جميعاً . كان يقول لي دائما :

تعالي معنا ، دعي أحمد لرحمة الله ، مثله كثيرون في السجون . ان كان له عمر سيخرج من السجن عندما يخرج الفرنسيون من الجزائر . لا تصدقي الفرنسيين أبداً ، ولاتهدري كرامتك .

لم أطوعه ، رضيت بالذل والعار ، رضيت أن أبقى هنا من أجل أن أنقذ أحمد . . ياحقارتي . . لن يغفر لي احمد فعلتي هذه أبداً .

أما الآن وقد مات احمد فأنا حرة طليقة من كل ماقيدت به نفسي . سأحارب مع من يحاربون ، فأما ننتصر ، واما نموت كرماء كما مات غيرنا . أشعر انني أستطيع أن أفعل كل شيء مهما يكن صعبا . ولكني لم أعد أستطيع أن أرى فرنسيا واحداً يدب على أرض الجزائر .

كفاني كبتا ، وحصراً وتمويها وخداعاً ، يا إلهي ! كيف أستطعت أن أصبر الآن ؟ .

أبق أنت هنا ان شئت ، اخدم سيدك الرجل الطيب — كما تسميه — لقد خدمته عشرين سنة ! . وكان من جراء ذلك ان وقعت مرة من أعلى شجرة أرغمك هو على الصعود الى قمتها لتشذب اغصانهـــا فوقعت ،

وتهشمت يدكَ ، وقطعت ، واصبحت عاجزاً لا تصلح الاناطوراً ككلب عجوز !. وماذا جنينا بعد هذا كله ؟ غير هذه الاسمال البالية الـــتي تغطيني وتغطيك ؟

وهذا الكوخ الحقير الذي نأوي اليه ،ومتى شاؤوا طردونا منه! ان كوخ الكلاب خير منه ، وزريبة الدواب أصلـــح من سكننا ! . ورغم كل ذلك مازلت تصدق أن غوليه يعطف على قضيــة الجزائر ! ومازلت تسميه بالرجل الطيب ؟ وتقول عنه انه غير راض عن تصرف حكومته ، وأبناء قومه . ما أغبك ! اذا كان ما تقوله صحيحاً ، فلم ذا ما برح كل يوم يتدرب وزوجه على اطلاق النار ، واصابة الهدف ؟ اليس من أجل قتالنا ؟ قم معي الآن وانظر من الكوة الصغيره الـــتي تطل على القبو لأريك كيف كدست فيه صناديق الذخائر والمتفجرات، كانوا يأتون بها غفلة منا ، وقد رأيتهم مرة يعدون بها أبناء جنسهم . ستقول لي كما قلت مراراً : انك رجل عاجز لا تصلح لحمل السلاح ، واذا التحقت بالثورة ، ستكون عالة على الآخرين . أما أنا فلست مثلك ، انـــني قوية أستطيع ان اتحمل كل شيء .

وتنحني على الأرض ، ترفع صرة صغيرة تلقيها على كتفها كانت قد جمعت فيها كل اشيائها . وتفتـــح الباب وتسير مهرولة نحو الطريق دون أن تلتفت اليه .

ويظل هو في مكانه مسمراً لا يتحرك وقدغاص رأسه بين كتفيه وبدا عليه انكسار حزين ذليل .

كان الذهول قد تملكه عندما رأى امرأته التي عهدها مستكينة ضعيفة ، تنقلب مرة واحدة الى ثائرة قوية لايخيفها شيء ، توجه اليه الاهانة تلو الاهانة فلا يستطيع أن يرفع رأسه أمامها ، أو يوجه اليها كلمة اعتذار واحدة . وراحت هي تعدو في الحديقة .

كانت نسمات الصباح الندية تداعب وجهها ، فيغمرها شعور لذيذ غريب لا عهد لها به . هو شعور الحرية والانطلاق .

راحت تشعر بذلك هانئة سعيدةرغمما بها من حزن وألم . كأن السنين الطويلة المليئة بالكبت والذل قد ازيحت في هذه اللحظة عن كاهليها ، فشعرت بكيانها ، واهتدت الى نفسها الضائعة ، انها الآن انسان كامل ، يستطيع أن يتصرف حسب مشيئته ، ويستطيع أن يقرر مصيره . لقد تحررت ، حتى من عبدالجبار . وأخذت تعدو بخفة ونشاط لا تعهدها في نفسها. وفتحت باب الحديقة ،والقت على الدار الأنيقةالفخمة القائمة في وسط الحديقة الواسعة نظرة كلها حقد واحتقار . وراحت تعدو في الطريق ، كانت المسكينة تجهل أن باب الحديقة متصل بسلك كهربائي فيه جرس يرن في غرفة نوم السيد (غوليه) كلما فتح باب الحديقة امعانابالحيطة والحذر .

ويقفز الفرنسي وزوجه من سريرهما وبيد كل منهما بندقية كانت دائما على متناول ايديهما ، وينظران من النافذة ، وتقول الزوجة :

ـ هذه هي زينب تحمل صرة وتعدو في الطريق ، الى أين تذهب ولما تشرق الشمس ؟

ويقول الزوج :

ـ ستلتحق اللعينة بالثوار حتما .. لأن اخاهـا قد مات البارحـة في السجن ، كانت الغبية تطلب مني دائما أن أتوسط لاخراج هـذا الثائر المتمرد بحجة أنه صغير السن لم يتجاوز الخامسة عشرة ، سأقتلها قبـل أن تصل إلى مآربها.

وتقول الزوجة :

ـ دعها لي ، دعـــني اجرب مقدرتي في الرماية .

ثم تقول وهي تصوب بندقيتهـا :

ـ كانت الشقية خادمة ممتازة ، أمينة ، ونشيطة ، خدمتنا عشـــر سنوات ، ولكنني لا أدري لم كنت أتوجس منها خيفة ، كأنها تكبت شيئاً في نفسها . وتطلق بندقيتهـــا . وتلتفت زينب نحو الصوت ثم تتابع عدوها بسرعة أكثر . .

ويقفز عبد الجبار من كوخه عندمايسمع أزيز الرصاص ،ويقترب من حاجز الحديقة ، وينظر الى الطريق ، ويـلوح له شبح زينب من بعيدفيبتسم قليلاعندما يطمئن عليها . ولكن طلقة ثانية راح يون أزيزها فوق رأسه ، ويرى شبح زينب يترنح ذات اليمـــين وذات اليسار ثم يهوي الى الأرض ! . ويهوي معه قلب عبد الجبار ! ثم يسمع ضحـكة

عالية أطلقتها حنجرة الرجل الذي كان يسميه بالطيب ، سمعها وكأنها قهقهة قرد في غابة كثيفة موحشة .

ويذهل عبد الجبار لحظة ، وهو يحملق عينيه ثم يرتد الى غرفته صلباً .. لقد صمم أمراً لن يثنيه عنه شيء .

وماهي الا لحظات قليلة حتى يخرج من الحديقة ويعدو في الطريق نحو زينب التي كانت تتخبط في بركة من دم ، حتى اذا صار على بضع خطوات منها سمع دوياً هائلا ، وتفتح زينب عينيها المرة الأخيرة فترى الدارة الأنيقة تهوى بين السنة اللهب ، وعجيج الدخان والغبار ، وتلمح عبد الجبار يلهث ويرتمي الى جانبها وهو يقول لها :

ـ لقد فعلتها يازينب .. ألقيت قنديل الزيت وهو مشتعل من الكوة التي تطل على مخزن الذخائر ، لن يستطيعوا أن يتغلبوا علينا أبداً .. اطمئني ، يازينب ، اطمئني .. وتطبق زينب عينيها وعلى فمها ابتسامة !.

قصة عمار

قصة عمار هذه يا طالما سمعتها من جـــدي ، وفي كل مرة كنت أجدني مأخوذة بها ، متلهفة على متابعتها وكأني أسمعها لأول مرة . وما أدري اذا كان مرد ذلك الى طرافة القصة وروعتها ، ام إلى حديث جدي العذب الطلي الذي كان لا بد له أن يأسر مستمعيه ، فقـــد كان جدي قاصّاً بالسليقة ، عميق الصوت ، بطيء الاشارات ، يعرف كيف يبدأ قصته بداية مشوقة ، وكيف ينهيها نهاية تترك في النفس انطباعها العميق. وكان يروي لنا هـذه القصة بالذات، كل مرة على نحو جديد يختلف عما سبقه تماماً . فمرة كان يحلو له أن يبدأها بوصف بطل القصة فيقول لنا :

ـ كم أتمنى لو أنكم عرفتم ابراهيم عمار ! . . لقد عشت طويـلاً ، ورأيت كثيراً مما وقع والله نظري على شبيه هذا الرجل أبداً.

كان عمار فلتة من فلتات هذا الدهر . يرى عملاقاً بين الرجال ، قوي البنيان ، عريض المنكبـــين ، ضخم الرأس ، حاد النظرات ، له مهابة تملأ النفس ، وجمال يمـــلأ العين ، اما خلقه وكرمه ومروءاته فما يبارى بها أبداً .

وتارة كان يحلو لجدي أن يبدأ القصة بوصف موكب الحـــج . ويسهب في تصوير الموكب حتى يخيل الي انني اراه يسير أمامي . كان يقول لنا :

ـ سقى الله ذلك العهد . . فوالله ماعرفت بلاد الشام موسماً أطيب من موسم الحج . كان الحجاج يفدون الى دمشق من الصين ، والتتر ، ومن الأفغان ، والعجم ، ومن بـــلاد الترك ، والكرد ، فيمكثون في دمشق أياماً طويـــلة يغنون أسواقها بما يبيعون ويشترون ، ثم يسيرون جميعهم تحت لواء الحـج الشامي الى أرض الله المقدسة . وكان الحجاج يحبون دمشق ويقدسونها ، ويطلقون عليها اسم (شام شريف)

كان موكب الحج يبدأ من سراي المشيرية[1] وكان الوالي أو المشير مـــع كبار الموظفين يقفون أمام باب السراي بألبستهم الرسمية الموشاة بالقصب . ثم يؤتى بالمحمل على جمل مزوق بطرر حمراء وأجراس مفضضة . وكم كان لذلك الهرم الضخم المكسو بالمخمل الاخضر المطرز بالقصب من مهابة في نفوسنا جميعاً . وكيف لا يكون كذلك وهو رمز الحج ، أمنية كل مسلم . وكان الوالي أو المشير يأخذ مقود الجمل الذي يحمل المحمل ويسلمه الى الباشا ــ أمير الحج ــ فيتلقاه هذا منه بخشوع ثم يقبله متباركا به ، وعندئذ كانت تصدح الموسيقى العسكرية ، ويقود

---

١ ـ السراي التي كانت مكان القصر العدل اليوم وكان يقيم فيها المشير الحاكم أو الوالي

الباشا المحمل بضع خطوات ، ويسير الموكب في طريق حي الميدان يتقدمه جمل آخر يحمل السنجق ـ علم الحج ـ وهو مكسو بالقطيفة الحمراء المطرزة بالقصب أيضاً .

فاذا وصل الموكب الى مكان ، كان يدعى ـ مصطبة الشيخ سعد الدين الجباوي ـ حيث ضريح الشيخ الجباوي ، تريث قليلاً ريثما يخرج من مقام الشيخ أحد أحفاده معتمراً عمامة خضراء كبيرة ، ومرتدياً جبة خضراء أيضاً يتقدم من الجمل حامل المحمل ويلقمه لقمة كبيرة كالكرة مصنوعة من معجون اللوز والجوز والفستق مع السكر . ولا أزال أذكر كيف كان الجمل يلوك بشراهة لقمته اللذيذة التي لا يفوز بها من جماعة الابل إلا من كان له شرف حمل المحمل ، وكان الناس يتسابقون ويتزاحمون حول الجمل يلملمون الفتات التي تتساقط من فمه ثم يتهادونها للبركة . ثم يتابع الموكب سيره ، حتى اذا وصل الى القدم ـ من ضواحي دمشق ـ توقف هناك في ساحة كبيرة ريثما يجتمع شمل الحجاج وما كان أروعه منظراً كنا نرى أشكالاً وألواناً من السحن والازياء لا تخطر ببال .

فاذا أزفت ساعة الرحيل ، ونادي المنادي أن الباشا قد أمر بالمسير ، كانت تقرع عندئذ الطبول ويكبر الناس ويهللون ويهزجون ،

وتهب الجمال هبة واحدة ويأخذ العكامون[1] بزمامها ، كما يأخذ المهاترة[2] بزمام الخيول. وكان العكامون والمهاترة ينتخبون من أشداء الرجال الذين يصبرون على المكاره ، وكانوا يرتدون سراويـــل سوداء فضفاضة ، ومياتين مقلمة ،وعلى رؤسهم لفّات ذات عذبات طويلة .

وكنا نرى المحارات[3] المدهونة بألوان زاهية تتمايل على ظهور الجمال . وكان يتوسط الركب ـ التختروان[4] ـ الذي يعد لركوب الباشا أمير الحج .

ويسير الركب ، ويلوح له المودعون بأيديهم ، وفي قلوبهم لهفة عارمة لزيارة بيت الله الحرام ، يضرعون الى الله ان يناديهم في العام المقبل الى زيارة بيته العتيق .

وكان عمار زينة هذا الموكب كله ، يرى دائماً في الطليعة ممتطياً حصاناً أدهم فارها ، وعلى كتفيه عباءة سوداء قـــد طرزت حواشيها بخيوط مذهبـــة ، وعلى رأسه عقال مذهب ثبته على كوفية سوداء لها طرر مذهبة ايضاً ، تتأرجح على كتفيه كلما خب به جواده الأدهم الأصيل

---

(١) العكامون : هم الذين يقودون جمال الحجاج ـــ (٢) المهاترة : هم الذين يقودون الخيول والبغال ـــ (٣) المحارة كهودج صغير وتعد غالباً لركوب النساء.
(٤) التختروان كغرفة صغيرة مربعة تركز على بغلين ضخمين ويفرش داخلها بحشايا من الدامسكو أو المخمل وتعد للباشا ولكبار موظفي الحـــج والموسرين من الحجاج .

يحف به دائماً عدد من السقّاية ، والعكامين والمهارة فكان كأنه والله قائد عظيم .

وكنت اجدني أصغي الى حديث جدي فاغرة فمي وخيالي الفتي يرسم صوراً رائعة لهذا الرجل الذي يبدو لي كأبطال الأساطير .

وأحياناً كان يطيب لجدي ان يبدأ قصة عمار هذا من نصفها ، أو من آخرها كأنه قاص عصري فيقول لنا :

ـ كنت ذات مرة عائداً من حجتي الثانية ، فلما جاوزنا منتصف الطريق ، ودخلنا وادي النار،ذلك الوادي الرهيب الذي يتلوى بين شعاب جبال شاهقة سوداء ، هناك كانت تبـــدو الصحراء وحشية الرهبة ، عنيفة القسوة . وما أدري لم كان الحداة يصمتون عن حدائهم في هـذا الوادي المخيف كأن وحشته كانت تلجم أفواههم فلا يسمع فيه إلا رنين أجراس الابل ، وحسيس السير فوق رماله الرمضاء . فلما خرجنا منه اذا أحد الأدلاء يرتقي هضبة صغيرة كائنة في نهاية الوادي ، وينادي بصوت عال حزين الوقع ، مضطرب النبرات :

ـ ياحجاج بيت الله الحرام تريثوا هنا قليلاً ، واقرأوا الفاتحـة على روح عمار .

وتثير كلماته في نفسي ذكرى مؤلمة تجعلني لا أملك حبس دموعي وتحملني الذكرى الى قبل عشر سنوات مضت ، يوم كنت في طريقي

الى تأدية فريضة الحج لأول مرة ، حيث مررت بهـــذا الوادي ذاته، وشهدت فيه كارثة مروعة هيهات ان تنمحي فصولها من ذاكرتي .

ويتريث الحجيج قليلاً ريثما تقرأ الفاتحة ثم يتابع سيره . وأسمع الحجاج من حولي يسأل بعضهم بعضا :

ـ ومن عساه يكون عمار هذا الذي تريثنا من أجله ، وقرأنا على روحه الفاتحة ؟

ويجيب الذين لايعنيهم من أمر هذه الدنيا شيء :

ـ مالنا وله ؟ حسبنا أننا قرأنا الفاتحـة على روحه الطاهرة لعله ولي من أولياء الله الصالحين ؟ . ويقول الذين يدعون العلم في كل شيء :

ـ عمار رضي الله عنه صحابي من أصحاب رسول الله ﷺ .

ويرد عليهم الذين أوتو شيئاً من العلم :

ـ ولكن عماراً الصحابي مادفن هنا قط .

ويبتسم جدي ويقول : كنت أسمع ذلك كله وانا صامت أترحم على عمار . فاذا انتهوا من حدسهم وتخمينهم رحت أقص عليهم خبر عمار فاقول لهم :

ـ لم يكن عمار ولياً ولا صحابياً كما تظنون . انما كان رجـلاً شهماً من أهل الشام ومن حي الشاغور فيها . وظل يتعهد سقاية الحج الشامي سنين طويلة ، وهـذه مهمة شاقة عسيرة وذات أهمية كبرى كما تعلمون تحتاج الى خبرة ودراية ، ولا يعهد بها الا الى رجل ثقة قدير كعمار رحمه

الله . وكم كان الحجاج والقائمون على الحج يحبونه ، فما بخل عمار بالماء مرة مهما كان الماء شحيحاً .

وذات عام كان الحر شديداً لافحاً ، وكان الحجاج أكثر منهم في كل عام ، وراحوا يطلبون الماء بكثرة فلاتنقع لهم غلة ، وراح السقاية يتذمرون ويخشون ان ينفد منهم الماء فيشكون أمرهم الى رئيسهم عمار.

ولكنه وهو الكريم المتلاف كان ينتهرهم ، ولا يأبه لتحذيرهم أبداً، ويأمرهم ان يقدموا الى كل حاج كفايته من الماء . ويقول لهم :

ـ لاعليكم انتم . سنصل غداً مع طلوع الفجر الى البئر الثرة الكائنة في وادي النار والتي اعتدنا ان نحط رحالنا عندها كل عام . وسنعبيء كفايتنا من مائها الغزير .

ولكن حدث مالم يحدث ابداً . ولم يكن في حسبان عمار ! ! عندما حط الركب عندالبئر الموعودة ، وذهب السقاية ينضحون منها الماء وجدوها ناضبة ليس فيها جرعة ماء واحدة ، وكان الماء الذي يحملونه قد أوشك على النفاد ، ويرتدون الى عمار يحملون اليه خبر السوء . وياهول ماسمع عمار ! ! ! .

انه هو وحده المسؤول عن هذه الكارثة المريعة التي ستفني الحجيج الشامي بأسره ، لقدفرّط بالماء أكثرمما ينبغي ولم يسمع لتحذير السقاة وتذمرهم .

ويسري الخـبر بين الناس بسريان النار بين الهشيم ، وما أسرع ماتشيع الفوضى ، ويستولي الذعر على النفوس ، فيعلو الضجيج وتختلط أصوات الرجال ببكاء النساء ، برغاء الابل وصهيل الخيل . وأرى عماراً قد ازرق وجهه حتى كاد يسود ، كان يتفرس في وجوه الناس كأبله مذعور يحاول تهدئة القدم فما يفلح أبداً .

ولن أنسى مرآه وهو يركض كالمجنون بين شعاب الجبال فوق الرمضاء حاسر الرأس ، كأنه يود قتل نفسه ولكنه يخشى غضب الله فيستجير بتلك الجبال لتخلصه من محنته ، كان يجأر بصوت يبعث القشعريرة في الأبدان :

ـ ياجبال وادي النار انهدي حمماً على عمار ! .

ويصل الخبر الى الباشا امير الحج فيأمر ان نغذ السير ماأمكننا لنخرج من هذا الوادي اللعين الذي كانت جباله السود كأنها تفح ناراً تشوي جلودنا . وما هي الا ساعـة أو بعض ساعة حتى خرجنا الى صحراء مترامية الأطراف مد البصر .

هناك أمر الباشا ان نحط رحالنا مرة ثانية ودعا الى خيمته عماراً وجميع الأدلاء وبعض ذوي الرأي من الحجاج ليتداولوا الامر فيما بينهم. ويقول جدي معتزاً :

ـ وكنت واحداً منهم . وأشهد ان الباشا كان رفيقاً بعمار فـلم يوجه اليه تأنيباً أو لوماً ، وفي مثل هذه الحال كان يباح له أن يضرب

عنقه . وبعد المشورة يجيء الرأي : اننا لانستطيع ان نواصل سيرنا أبداً فالبئر التي تليها بعيدة جداً ، والماء الذي معنا لايكفينا مؤونة طريق . وربما هلكنا جميعنا قبل ان نصل اليها . ويقول بعض الادلاء :

ـ كنا قد سمعنا ان غير بعيد من مكاننا هذا توجد بئر صغيرة كان ينزل حولها بعض الاعراب ، وكانوا يفدون الينا احيانا يتكسبون من الحجاج عندما نحط رحالنا في وادي النار ، ويقولون ان ماء تلك البئر عذب نمير ولا ينضب أبداً . فلو انحرفنا عن طريقنا شرقاً بضعة أميال استطعنا ان نصل اليها ونعبىء منها حاجتنا من الماء ، ثم نعاود طريقنا الاصيل ، ولا بأس علينا اذا تأخر ميعاد وصولنا الى مكة يوماً أو بعض يوم ، وليس أمامنا غير هذا السبيل .

وينبري آخرون من الادلاء ويقولون :

ـ ولكن البئر التي تتحدثون عنها تقع شمالاً من مكاننا هـذا وليس شرقاً كما تتوهمون ، وانا لواثقون من قولنا هذا .

ويحتدم الجدال بين الطرفين دون طائل ، وإذا الباشا يقول :

ـ مادام في الأمر شك فلايجوزلنا أن نغامر بالحجيج كله ، سنغامر ببضعة رجال منا يركبون الخيل ويسيرون مسرعين نحوالشرق يبحثون عن البئر ، وسننتظرهم حتى صلاة العصر فاذا لم يعودوا أخذنا الطريق الثانية قبل ان يهبط الظلام .

ويمد الباشا يده الى خرج قريب منه فيخرج منه كيساً مملوءاً ذهباً يفرغه أمامه كومة وهاجة ويقول :

ـ وسيكون هـذا الذهب كله من نصيب هؤلاء الرجال ، وإذا لم يعودوا كان ديناً في رقابنا لورثتهم ، وسيكون أجرهم عند الله عظيما .

وقبل أن ينطق احد بكلمة ينبري عمار وقـد أشرقت أساريره ويقول بلهفة :

ـ انا لها وحدي ياباشا ، والله لن يذهب معي أحد . أضرع اليك ان تعيد هذا الذهب الى مكانه فلا حاجة لعمار به ، مافائدة الذهب ياباشا إذا عز الماء ؟ ! ! .

وقبل ان يتيح لأحـد ان يتكلم يخرج من الخيمة مسرعاً ويأتي بحصانه الأدهم ويفتح قربة ماء يقدمها اليه ويقول له أحد الرجال :

ـ ويلك ! هل جننت ياعمار ؟ أتدع هـذا البهيم يعب الماء عباً ونحن أحوج مانكون الى كل قطره منه ؟ .

ويرد عمار بهدوء يشوبه كثير من المرارة :

ـ دعه يشرب لعلها آخر شربة له ! .

ثم يمتطي جواده ، ويشمـل الجموع بنظرة تضمهم جميعاً ، ثم يضرب صدره بكفه الضخمة قائلاً :

ـ انا لها وحدي يارجال ، اطمئنوا لن يخيبنا الله . إذا أذنت العصر ولم أعد اليكم فاعلموا أن الصحراء قد ابتلعت عماراً ! . . . فاياكم ان تنتظروني لحظة واحدة . خذوا طريقكم شمالاً ، وإنكم لواجدون البئر ان شاء الله .

وترتفع ألوف الأيدي تلوح له ، وقد بدا على الوجوه شيء يسير من الاطمئنان ، ويلكز عمار حصانه فيعدو به كأنه يطـــير طيرانا ، ويروح حجمه يصغر ويصغر حتى يلوح كالغزال ، ثم كالطائر ، وتظل العيون تتابعه بلهفة حتى يصـــير كنقطة سوداء ما تلبث ان تذوب في الأفق البعيد .

ويرين السكون على هـــذه الجموع الغفيرة فلا يسمع إلا طقطقة المسابح ، ودوي رهيب ينبعث عن تمتمة الدعوات والابتهالات ، وتمر الساعات بطيئة ثقيلة ، والعيون لا تتعب من التحديق الى الأفق . حتى الابل كانت ترى رابضة على الارض مصغية باعناقها الطويلة الى الأمام ، وفي عيونها استسلام ذليـل الى مصيرها المحتوم ، كذلك الخيل كانت ترى صافنة هادئة كأنها مهمومة وجميعها تحـدق الى حيث يحدق الناس كأنها تعي الكارثة المخيفة التي تنتظرها .

ويظـــل الجميع يترقبون بلهفة مابعدها لهفة النقطة السوداء التي ستظهر في الأفق البعيد ، والتي ستـكبر وتـكبر حتى تصبح عماراً على حصانه الأدهم الفاره يحمل اليهم بشرى النجاة .

ولكن النقطة السوداء ماظهرت لنا قط ، وتظل الصحراء على صمتها الرهيب الذي يقهر النفس ويكيدها كيدا .

وتحين العصر ، ويعتلي المؤذن تلك الهضبة القائمة في نهاية وادي النار ، ويؤذن العصر ، وعندما يفرغ من الآذان يقول بصوت يقطر حزناً ولوعـــة :

ـ ياحجاج بيت الله الحرام اقرأوا الفاتحـة على روح عمار ! . . . وخذوا طريقكم شمالاً وإنا لواجدون البئر ان شاء الله .

ويسير الركب حزيناً واجماً وتظل أعناق الناس مصغية الى الوراء تبحث في الأفق البعيد عن نقطة سوداء تحيل الحزن فرحاً ، واليأس أملاً.

وماهي إلا ساعات قليلة حتى وجدنا البئر . وكان قد بدأ يخيم الظلام ، فراح السقاية ينضحون منها المـاء .وكلما أخرجوا دلواً لا بد لهم أن يصرخوا :رحمة الله عليك ياعمار ، وراح الناس يشربون ويغتسلون . وتظل في القلوب حرقة هيهات ان يطفئها الماء النمير .

ومنذ ذلك الحين وكلما مر الحجيج الشامي بوادي النار وانتهى الى تلك الهضبة ذاتها ، لا بد أن يعتليها احد الأدلاء وينادي :

ـ ياحجاج بيت الله الحرام تريثوا هنا قليـــلاً واقرأوا الفاتحة على روح عمـار ! .

سراب

قال محدثي :

قلت لصديقي وكنا قد وصلنا مطار جنيف في صباح يوم مشرق أغر :

ـ لا أدري يا أخي ما الذي حملك على الاسراع بالمجيء بنا الى المطار قبل قيام طائرتنا بساعات ؟.

فما كان ضرك لو تركتنا نستمتع قليلاً برؤية تلك البحيرة الرائعة التي لا تملها العين ولا تسأمها النفس ؟

ويضحك صديقي ساخراً ، ويقول :

ـ دعك من هذا . . اتحسب انني أصدقك ؟ . أقسم بالله انك لم تر من البحيرة الرائعة شيئاً !. لقد كنت مأخوذاً بتلك الحسناء التي كانت تجلس بالقرب منا على شرفة الفندق ، والتي كانت تخصك بين حين وآخر بنظرات كلها اغراء .

قلت : ورأيتها أنت ـ على ما يبدو لي ـ غير حافلة بك ، ولا آبهة لأمرك ، فغاظك منها ذلك ، فراحت تلح علي بالمجيء الى هنا ، حتى اضجرني الحاحك فطاوعتك ، وياليتني لم أفعل !.

قال صديقي : انك والله لظالم لي فيما تتهمني به ! فأنا قد اشفقت عليك من الوقوع في حبائل هذه الحسناء اللعوب ، وعهدي بك سريع المأخذ ، ونحن على وشك السفر ، ووشك الافلاس أيضاً ، فأحببت أن أنقذك من هذا المأزق الحرج .

قلت : شكراً لك على اهتمامك هذا . ولكن أرجوك بعد اليوم الا تشفق علي من الحب مهما كانت الاسباب وجيهة ، كان الاحرى بك أن تشفق علي من عدم الوقوع في حبائله ، انا الذي شارفت الخامسة والعشرين من عمري ولم أذق طعمه بعد ! وكلما أقدمت عليه وجدتني احجم عنه دون ما سبب كأني أرهبه .

قال صديقي : لا عجب في ذلك أبداً . لأن من العسير على من كان مثلك يعيش في دمشق ، في بيئة محافظة متزمتة كبيئتك ، ان يستمتع بالحب كما يستمتع به الآخرون ، فالحب في مثل هذه الاجواء مصادفة قد يجود بها الدهر وقد لا يجود ؛ ومع ذلك لا أخفيك انني استغرب كيف تعامت بنات حواء عن قوامك السمهري ، وعينيك الجذابتين ، فلم يمهدن لك السبيل الى الحب ، وعهدي بهن صيادات ماكرات لا يفلت من حبائلهن من كان على شاكلتك .

قلت ضاحكا : ياليتني كنت أسمع هذا الاطراء من فم هذه الحسناء مثلا ، لا من فمك أنت ! وأشير بيدي الى حسناء صغيرة كانت تعبر ردهة المطار بمشية خفيفة رشيقة ، وقد تركت شعرها الاشقر

يموج على كتفيها بلا انتظام ، وارتدت بنطالا قصيراً أزرق ، وقميصاً أبيض ينحسر عن ذراعيها المفتولتين ، وعنقها الاتلع .

قال صديقي : قم بنا نتبعها ، وجرب أن تتحدث اليها ، فأنت تجيد اللغة الفرنسية عسى أن تفارقك تلك الرهبة التي تستولي عليك أمام الحسناوات ، وتحرمك من مغامرات الحب . ولعلك تحسن ظنك بي عندما تعوض هنا مافاتك هناك على شرفة الفندق بسببي .

وقمنا على الفور نسير في اثر الفتاة ، وكانت قد خرجت من ردهة المطار ، ودخلت مقهى أنيقاً أقيم في المطار لراحة المسافرين ، وقد انتشرت فيه موائد صغيرة ذات أغطية برتقالية اللون ، وفوق كل مائدة زهرية فيها باقة من الليلك البنفسجية تعطر الجو بأريجها المنعش ، وتضفي عليه بهجة ، ورونقاً ، وسحراً . وفي زاوية المقهى اقيم (بيك آب) يبعث بموسيقى شجية ناعمة ، وكلما صمتت الموسيقى كان يقوم أحد الحاضرين فيضع في ثقب بجانبه شيئاً من النقود على الاسطوانة التي يرغب في سماعها فتعود الموسيقى الى صدحها الشجي . وجلست الفتاة بمفردها أمام احدى الموائد في أقصى المكان الذي يكاد يكون خالياً من الزوار في ذلك الصباح ، الا من بضعة أشخاص انتشروا حول الموائد هنا وهناك .

قال صديقي : يظهر لي من ألبستها انها ليست على أهبة السفر ، ربما جاءت الى المطار لتستقبل صديقاً لها .

فقمت من فوري بلا تردد ، وهندمت ملابسي ، وسويت شعري واتجهت صوبها ، وانا احضر في ذهني ما سأقوله لها ، فلما صرت أمامها تماماً ارتج علي ، شأني دائما مع كل حسناء ، وأخذت أنظر حولي كأني استنجد الأشياء لتسعفني ، ويقع نظري على الشارع العريض الذي يبدو من الشرفة التي وراءها ، والذي يصل المطار بمدينة جنيف ، فقلت لها بعد أن حييتها :

ـ هل تسمح الآنسة فترشدني الى أين يصل هذا الشارع العريض؟

فابتسمت بخبث ثم قالت هازئة :

ـ والى أين تريده أن يصل ، ان لم يصل الى جنيف ؟

قلت : انني يا آنسة غريب . وبليد أيضاً كما ترين . وستتأخر طائرتي قليلاً ، فهل تسمح الآنسة أن أتناول معها فنجانا من القهوة ؟

فضحكت وقالت : بكل سرور . .

فقعدت قبالها وقلت لها :

ـ يبدو أن الآنسة جاءت هذا الصباح لتستقبل احد ركاب الطائرة الآتية.

ـ لا ، أبداً ولكن من عادتي أن أقوم كل صباح بنزهة طويلة على دراجتي ، فاذا تعبت دخلت الى أحد المقاهي فاستروحت قليلا ثم عدت ادراجي ، وكانت وجهتي هذا الصباح طريق المطار .

ـ هذا من حسن حظي .

وتتوقف ،أثناء ذلك الموسيقى فتبدي أسفها ، فأقوم حالا واتجه نحو (البيك آب) واضع في ثقبه شيئاً من النقود قائلا ، فيما بيني وبين نفسي : يا حظي ! فاذا هي موسيقى راقصة .

قالت دهشة : هذه موسيقى راقصة ، لم اخترتها ؟

- لم اخترها أنا ، تركت اختيارها لحظي الذي أراه حسنا هذا الصباح على غير عادته ، فاذا الموسيقى تدعونا الى الرقص .

قالت مستغربة : الى الرقص ؟ في هذا الصباح الباكر ؟ وفي ألبسة الرياضة ؟

- هل في سويسرا قانون يمنع ذلك ؟

- لا أبداً ،نحن أحرار هنا،نفعل مايروق لنا،مادمنا،لانزعج الآخرين.

- وهل سينزعج الآخرون اذا رقصنا الآن ؟

- لا أظن ، ولكنهم سيضحكون منا حتما .

- ولا أجمل من أن نرقص نحن ، ويضحك الآخرون .

قالت : فلنرقص اذن .

وتهب واقفة ، وآخذها بين ذراعي ، ونبدأ الرقص ، وكنت منذ سنتين حاولت أن أتعلمه فلم أفلح أبداً . ولكني وجدت قدمي في ذلك الصباح تساعداني على اللف والدوران كأبرع من رقص .

وتلقي الفتاة رأسها على صدري ، وتتفرس في وجهي بوله ،واروح أتيه في أغوار عينيها الحالمتين حينا ، المتوقدتين احيانا ، وكأنه قد اختلطت زرقة بحيرات سويسرا بخضرة مروجها .

كنت أشعر انني أطير في أجواء سحرية ، ما حلم خيالي في أرتيادها يوماً ، لقد نسيت كل شيء ، الزمان والمكان — وصديقي أيضاً الذي كنت ألمحه بين حين وآخر بقوم الى (البيك آب) فيعيد الينا الموسيقى كلما توقفت عن العزف .

كنت اوثر الصمت ، ولكن الصبية تكلمت فسألتني قائلة:

ـ أحقاً انك ستسافر بعد قليل ؟

أجبت بلهجة آسفة : نعم ياعزيزتي ، بعد قليل ! .

ـ والى أين ستسافر ؟

ـ الى بلادي .

ـ وهل بلادك بعيدة ؟

ـ نعم بعيدة .. بعيدة جداً . هل تستطيعين ان تحزريها ؟

ـ صفها لي .

ـ أنا من أقدم مدينة على وجه الارض .. أنا من بلاد أزدهرت فيها حضارات ، وقامت فيها دول ، وفنيت دول ، ورغم ذلك كله ظلت صامدة للخطوب ، هازلة بالدهور . أنا من مهبط الوحي ، انا من أرض

الانبياء ، أنا من بلاد السحر والخيال ، أنا من بلاد الف ليلة وليلة ، أنا من منابع البترول ، أنا من مناجم الذهب .

ـ حسبك . لقد حزرت . أنت عربي اذن .

قلت معتزا : نعم ياعزيزتي ، أنا عربي .

قالت : يالروعة هذه المصادفة الغريبة .. لكم حلمت منذ كنت صغيرة اقرأ الف ليلة وليلة ان يخطفني فارس عربي أسمر ، رسمه خيالي على شكلك تماماً ، في عينيه لهفة تنم عن نبل ، واخلاص ، كما في عينيك ، لم أعهدها في عيون فتيان بلادي ، ثم يطير بي الى قصره الساحر القائم على واحة خضراء ، في صحراء مترامية الاطراف ، يلوح لي سرابها من بعيد حينا بعد حين .. وراح الحلم يعاودني صباح مساء حتى عشقت صاحب الحلم ، وعزفت عن كل من كان يتقرب اليّ من الرجال ، ومازلت عزوفة عنهم الى الآن .

قلت : وأنا أيضاً يا عزيزتي لكم حلمت أن يكون لي حبيبة صغيرة ، على شكلك تماماً ، حتى ليخيل الي انيأعرفك منذ زمن بعيد . اتصدقين اني أنا الذي تريني زلق اللسان كنت الجم امام كل حسناء كأنني مرصوداً من أجلك ومن أجلك وحدك . . كم كنت أحلم ان يكون لي حبيبة يشقيها فراقي ويضنيها ، فاذا سافرت جاءت تودعني ، وتلوح لي بمنديلها الأنيق ، ثم ترده الي عينيها لتكفكف به دموعها المنهمرة .. الا يمكن لك ان تفعلي ذلك من أجلي بعد قليل ولو على سبيل التمثيل ؟ ألم يسبق لك ان ودعت حبيباً الى غير رجعة ؟

وتنظر إلي كالعاتبة وتقول :

ـ لا . لم يسبق لي ذلك أبداً ، ولكن أراني الآن سأودع ذلك الحبيب!

وما كادت تنتهي من قولها هذا ، حتى أعلن مكبر الصوت قيام طائرتي . فتوقفنا عن الرقص ، وراحت هي تتفرس في وجهي بذهول وتقول كالحالمة :

ـ ما أقصر هذه الساعة الحلوة يافارسي العربي !

أهكذا يموت حلمي الجميل ، ويمسي سرابا ؟!

ثم تندمع عيناها الجميلتان ، وتتلئلئان بالدموع ، وتلقي رأسها على كتفي وتجهش بالبكاء !

كان الاسى يهصر قلبي وأنا أتملى من جمالها وهي تبكي . ويتمثل في خاطري قول الشاعر العربي الذي كنت انتقد مبالغته عندما يصف لنا حبيبته في ساعة وداع ، فيشبه لنا عينيهابالنرجس ، ودموعهاباللؤلؤ ، وخديها بالورد .

لقد كان الذنب ذنبي اذن ! ! لم يسبق لي ان رأيت كما رأى هو ، عينين نرجستين يتساقط منهما الدمع كاللؤلؤ الرطب ، على خدين كأنهما الورد الندي .

ووجدتني أنا الذي عهدتني عصي الدمع ، يطفر الدمع الى عيني فجأة ثم ينهمر غزيراً من مقلتي فيختلط بدموعها ، ويعلو نشيجنا . . كما يعلو ضحك صديقي . كان الخبيث يصوب الينا آلة تصوير ، ويلتقط لنا صورة ، ليبرزها حجة كلما حلا له ان يرويها نكتة سائغة للاصدقاء.

ثم يتقدم منا ، ويفرق بيننا وهو يقول لي ضاحكا :

ـ أحقاً أنك تبكي ؟ أو تعرفها من قبل ؟

ماعرفتك والله مجنوناً الى اليوم .. ثم يأخذ بيدي ويتجه بي الى الطائرة التي كانت على أهبة القيام . واراها وأنا أصعد السلم تلوح لي بنديلها ، ثم ترده الى عينيها لتكفكف به دموعها المنهمرة . ثم ترتفع الطائرة فتغيب عن ناظري ، وامعن في البكاء .

افلت مني فتاة احلامي بعد ان لمستها بيدي ثم يغيبها القدر عني كما يغيب السراب امام التائه في الصحراء ؟

ويأخذ صديقي في مواساتي ، وتخفيف حزني فما يجديه ذلك نفعاً ، ولما يئس مني قال لي :

ـ لم كل هذا الأسى ياصاحبي ؟ مادام كلا كما مفتونا بصاحبه يكفي ان تبرق اليها فتطير اليك من فورها .

واضرب جبهتي آسفاً وأنا اقول له :

ـ لقد نسيت ، نسيت ان آخذ عنوانها ! لماذا لم تذكرني ؟

ويضحك صديقي هازئاً شامتاً ويقول :

ـ اراك ستظل في ميدان الحب غبيا ، بليداً مهما حالفك النجاح .



شخصيات غير رسمية

— لا فائدة انه يحتضر ! . . قد ينتهي اليوم أو غداً ! .

وتخترق الكلمات أذنيه كرصاصات طائشة . . ويحملق بالطبيب الماثل أمامه فلا يرى منه إلا الشفتين الآثمتين اللتين أطلقتا الحكم القاطع على أبيه الحبيب . . ويظل في مكانه جامداً لا يتحرك كأنه لا يعي ما يسمع . والطبيب العجوز يربت كتفه ويواسيه قائلاً له :

— كن يابني رجلاً ، انت أكبر اخوتك فلا تتخاذل أمامهم . . كلنا على هذه الدرب ، ما فائدة الحزن ؟ . . إنا لله وإنا إليه راجعون ،

ويفسح الطريق أمام الطبيب وهو ذاهـــل ثم يغلق الباب خلفه بحركة آلية ، كم يود لو أنه لا يصدق ما سمع منه ، ولكن كان كل شيء من حوله يؤكد قوله . . الحزن العميق بدأ ينشر ظلاله ببطء صامت على جوانب الدار حتى كأنها ما عرفت المرح والهناء فـــيما مضى من أيامها الخوالي .

زغردة النافورة التي تتوسط الدار راحت تقع على سمعه كولولة ثكلى على وحيدها . ! .

شجيرات الياسمين والزلف التي زرعها أبوه بيديه وعرّشها على الجدران والشبابيك بدت لعينيه وكأنها أكاليل ذابلة على قبر شاب عزيز !.

مرأى زوجات أبيه الثلاث وهن جالسات على كتف الليوان يكفكفن دموعهن وينظرن الى بعضهن بعطف وحنان وكأن المصيبة المتوقعة قد جمعت بينهن وأذابت كل شحناء وبغضاء قامت بينهن في الماضي.

إخوته وأخواته الصغار ينظرون الى أمهاتهم الباكيات بخوف ووجل وقد اصفرت وجوههم ، واتسعت عيونهم ولطى كل واحد منهم في ناحية يفسر حسب ادراكه مايجري حوله من أمور مخيفة .

وتناديه أخته الكبيرة بصوت باك قائلة له :

ان أباه يطلبه بالحاح ، يريد ان يتحدث اليه وحده .

آه ! هل يستطيع ان يضبط نفسه أمام أبيه ، ويحبس دموعه المنهمرة ؟ . . ويسير خائفاً يجر رجليه ويدخل غرفة ابيه .

وما يكاد المريض يشعر بدخوله حتى يفتح عينيه المتعبتين ويشير اليه أن اقعد على حافة السرير . ثم ينتظر قليلاً كأنه يهدئ نفسه المضطربة ، ويجمع قواه المتلاشية ثم يقول بصوت مخنوق كأنه آت من غير هذا العالم :

ـ اغفر لي يابني ، سأترك لك حملاً ثقيلاً ، وهما كبيراً ، ما كنت أحسب ان عمري سيكون قصيراً الى هذا الحد ! .

— ماهذا التشاؤم ياأبي ، نسأل الله ان يبقيك لنا .

— لا فائدة مني، لقد انتهيت يابني ، وستكون أنت ياخالد رب هـذه الأسرة من بعدي . فكن يابني رفيقاً بها ما استطعت .

ـ سامحك الله ياأبي ! أتوصيني باخوتي واخواتي ؟ هل انا بحاجة الى وصية ! ؟ .

ويلوح على وجه الأب شبح ابتسامة مايلبث ان يتوارى ثم يقول:

— لا يابني لست والله بحاجة اليها . انا أعرف طيبة قلبك ونقاء ضميرك. ولكني اطالبك بوعد يخيل اليّ أنه يصعب عليك تحقيقه ، ولكن لا بد لي منه كي يطمئن قلبي عليك وعلى هـــذه العائلة الكبيرة التي سأتركها أمانه في عنقك .

— سأكون كما تريدني يا أبي .

ويصمت الأب قليلاً ليريح انفاسه المتعبة ثم يقول :

ـ ألا تعتقد يابني انك أديت ما عليك من واجب نحو وطنك ؟

ويحاول الابن ان يقاطع أباه ليقول له :

— وهل يحدد واجب المرء نحو وطنه ما دام هو قادراً على أداء هذا الواجب وما دام وطنه بحاجة اليه ؟ .

ولكن الأب يستمر في كلامه :

— ألم تحبس شهوراً طويلة في قلعة دمشق ، وتعـذب وتهان لانك دائماً في طليعة المناوئين للفرنسيين في هـذا البلد ؟ ألم تنف الى جزيرة أرواد وتحبس فيها مـع رفاق لك مايقرب من السنتين وانت لم تتجاوز

العشرين من عمرك ؟ فكيف لي ان أطمئن عليك وعلى هــــذه الأسرة مادمت سائراً في طريقك هـذه ؟ من ياخالد يرعى اخوتك الصغار اذا حبست ؟ ومن يحافظ على اخواتك اذا نفيت أو أصابك مكروه ؟ . عدني ياولدي انك لن تخاطر بنفسك بعد اليوم . . أتذكر انني اعترضت مرة واحدة في الماضي ؟ ألم أكن مشجعاً لك وفخوراً بك في كل ماتقوم به من أعمال في سبيل وطنك وأمتك ؟ اما بعـد اليوم لم تعد مسؤولاً عن نفسك فحسب ، ستصبح من بعدي رب أسرة كبيرة فحرام عليك ان تعرض نفسك للخطر وأسرتك للهوان .

ويأخذ الابن يد أبيه يقبلها ويبللها بدموعه ويقول له صادقاً مخلصاً:

ـ اطمئن ياأبي، أعدك انني لن أخالف مشيئتك ابداً .

ويغمض الاب عينيه ، وقـــد اتعبه الكلام فتعاوده الغيبوبة ، وترتسم على فمه ابتسامة اطمئنان ورضى .

ويخرج خالد من غرفة أبيه موزع النفس مشتت الفكر يشعر بالضياع ، لايستطيع ان يجمع فكره ليسأل نفسه هـل اخطأ ام أصاب عندما قطع على نفسه هذا العهد امام ابيه المحتضر ؟ .

لم يكن يدرك انه يحب أباه الى هذا الحد . منذ ماتت أمه اصبح ابوه مزواجاً فكان احياناً يلومه ، وأحياناً يحقد عليه فيما بينه وبين نفسه ولكن سرعان ما يعود ويغفر له عندما يرى حنانه الفائض الذي يغمر أفراد اسرته الكبيرة على السواء ، لم يخطر له أن اباه سيموت يوماً ،

ويتركه هذا العبء الثقيل . كان دائماً ممتلئاً صحة ونشاطاً كأنه في عز شبابه ، وان كان قدأشرف على الستين . لاتفارق الابتسامة شفتيه مهما كان متعباً . ينهض باعباء أسرته الكبيرة دون ان يشكو مرة أو يتذمر او يحمل أحد ابنائه بعض أعبائه ، يريد دائماً ان ينهض وحده بالحمل الثقيل ، انه شمعة هذا البيت،أيطفئها الموت هكذا على أهون سبب ؟ ! . كم يتمنى ان يفديه بأعز ما لديه ! .

ويسمع طرقات متتالية على باب البيت ، طرقات لايخطئها سمعه ، انهم رفاقه الذين يعمل معهم فيمنظمة سرية تنظم المظاهرات والاضرابات داخل البلد ، وترتبط بالثوار القائمين في الغوطة فتنفذ ما يطلبون منها من مهمات مهما كانت خطرة . آه لو أنهم يتركونه الآن وهمه ، لن يستطيع بعد اليوم أن يكون واحداً منهم ، يقوم بما يقومون به من اعمال خطرة ، لانه سيصبح رب أسرة كبيرة . لاشك أنهم سيعذرونه

ويفتح لهم الباب . ويبادلهم تحية مقتضبة ثم يدخلهم الى غرفته الخاصة . كانوا ثلاثة شباب يبدو عليهم الاضطراب ؛ ويهم ان يشرح لهم حاله وما سيؤول اليه أمره ؛ ولكن أحدهم يسبقه الى الكلام بلهجة فيها تأنيب وعتب :

-أين انت يا أخي ؟ مامعنى غيابك عنا ؟ لم نرك منذ ثلاثة أيام .

ويقول آخر :

-أتغيب عنا ساعة نكون في أشد الحاجة اليك ؟

ويتمهل بالجواب قليلاً ثم يقول بصوت مضطرب :

ـــ أبي مريض ، انه يحتضر . . لن استطيع فراقه لحظة .

ويحملقون به كأنهم لا يفهمون قوله. وكان أصغرهم اسرعهم الى الكلام:

ـ وماذا يعني ذلك ؟ هل نحن في ظروف عادية ؟ألم أترك انا مريضة واذهب الأردن لأبتاع سلاحاً للثوار ،وعدت من هناك فلم أجدها .. ان أباك يا أخي سيموت كما يموت كل الناس على فراش وثير بين أهله وأولاده، ولكن هناك في الغوطة شباباً تتناثر أشلاؤهم ، وتـنزف دماؤهم ولا طبيب يسعفهم فيمسك عليهم رمق الحياة ، يقدمون على ذلك من أجلي وأجلك وأجل الآخرين ، ثم نتخلى عنهم في أحرج لحظة .

وينظر اليهم صامتاً لا يجد مايقوله لهم . ويقول آخر :

ـــ القضية هامة ياخالد تتعلق بك بصورة خاصة ، اصغ إليّ :

غداً سيرسل الفرنسيون حملة كبيرة الى الغوطة ، ستخرج كما علمنا مع طلوع الفجر ، والثوار كما تعلم قد نفدت دخيرتهم كلها ولن يصلهم السلاح الا غداً أو بعد غد ، ومعنى ذلك ان الحملة ستفنيهم جميعاً او يساقون الى السجون والمشانق ! . . الا اذا استطعنا نحن ان نعرقل سير الجيش يوماً أو أكثر كما طلب منا .

ويرد عليهم ساخراً بنزق :

ـــ أمجانين انتم ؟ . . أنستطيع نحن ان نعرقل سير الجيش ؟ .

ـــ نعم نستطيع . . اذا استطعنا ان ننسف جسر (تورا) الذي سيمر الجيش فوقه ، ولا بد له عندئـذ ان يعود الى دمشق ريثما يصلح

الجسر ، لأن الجسر هذه هي أسلم الطرق الى الغوطة في نظر الفرنسيين، وليس بيننا كما تعلم من يجيد صنع القنابل والألغام غيرك ، وقد نفد ما كان لدينا منها ، فانظر أي خدمة تستطيع ان تؤديها الى الثورة ، ترى لو بقيت هنا الى جانب أبيك ، أتستطيع ان تهبه الحياة ؟ ولكنك تستطيع ان تدفع عن المجاهدين خطراً كبيراً اذا نسفت الجسر .

ويشعر بالخجل امام رفاقه ، ويدرك ان عاطفته القوية نحو أبيه قد أعمته عن الحق ، وكادت تصرفه عن الواجب الذي رهن له نفسه حتى آخر حياته .

ولم يجد ما يرد به عليهم سوى ان يسير أمامهم منكمشاً ، موزع النفس ، يشعر بخزي ذليل فيندى جبينه بالعرق ، ويقول في نفسه :

ــ غفر الله لك يا أبي ، كم كنت أنانياً عندما طالبتني بهذا الوعد ! .

ويغلق باب بيته وشعور خفي يوحي اليه انه لن يعود اليه أبداً .

وكان احد رفاقه قد ادرك ما يدور في نفسه فراح يربت كتفه قائلاً له:

ــ هكذا عرفناك دائماً يا خالد .. ها أنت ذا قد عدت الينا ، ان ظروفك قاسية ، ولكن هناك ما هو اسمى من شؤوننا الخاصة . ليطمئن بالك، سنتعهد أسرتك اذا أصابك أي مكروه ، سنواري أباك التراب ، وسنكون كلنا أبناءه .

بقي خالد يعمل طول الليل في بيت منعزل لا يثير الشبهات ، كان قد اتخذه ورفاقه مقراً لاجتماعاتهم السرية ، وجعل خالد من احدى غرفه

معملاً صغيراً مجهزاً بادوات بدائية وببعض مواد كيمائية ، واستطاع بما خبره من تجاربه الخاصة ومن بعض معلومات كان قد اكتسبها ايضاً عندما كان يعمل في ورشة ميكانيكية ، أن يصلح بعض الاسلحة الفاسدة وان يصنع قنابل وألغاماً يمد بها الثوار ، وكان العسكريون منهم يدهشون لنجاحه في عمله هذا ، ويعجبون من بعض اختراعات يتفتق عنها ذهنه ، فيقوم بتصميمها وصنعها بنفسه في معمله الصغير ؛ ويحسب من يراها انها صنعت في معامل خاصة بالاسلحة . كان ينكب على عمله هذا ليال طويلة غير آبه لأخطار الانفجارات التي يتعرض لها أثناء العمل .

واستطاع في تلك الليلة ان يصنع قنبلة هائلة ؛ لم يشأ ان يجعلها مؤقتة خشية ان يخونه الحظ كما خانه ذات مرة ؛ فتنفجر قبل مرور الجيش او بعده ، آثر ان يوصلها بسلك طويل ؛ وعندما يجذب السلك ستنفجر القنبلة حتماً ؛ هذه اسلم طريقة ؛ ولكن من يجذب السلك عند مرور الجيش ؟ . . . نادى رفاقه وعرض عليهم الأمر ؛ لقد اعتادوا ان يقترعوا فيما بينهم عندما تقتضي الحاجة ان يقوم احدهم بمهمة خطرة وإذا القرعة تقع هذه المرة على خالد . واذا هو يفرح بهذه المصادفة لأن المغامرة ستنجح حتماً وستنفجر القنبلة في الوقت المناسب فهو يثق بنفسه اكثر من أي شخص آخر من رفاقه ؛ لن تخونه اعصابه مهما بلغت خطورة المغامرة .

قبيل الفجر كان خالد ورفاقه يدفنون القنبلة تحت الجسر ؛ ويمددون السلك المتصل بها الى حفرة غير بعيدة عنه ، ثم يقعد خالد في الحفرة

ويسترها رفاقه بالاعشاب والاغصان اليابسة ويطلبون من خالد ألا يبرح الحفرة حتى يعودوا اليه ويدبروا نقله الى مكان أمين. ويختبيء كل واحد منهم في مكان ليراقبوا انفجار القنبلة .

وتمر الساعات على خالد بطيئة ثقيلة كدهور طويلة ، وهو قابع في الظلام ويده على السلك . لم يخطر له أبوه المحتضر ، ولا أسرته الحزينة ولا العهد الذي قطعه على نفسه وحنث به بعد ساعات . لم يعد يشعر بشيء ؛ او يفكر بأمر ؛ كأن كل حواسه قد استحالت آذاناً ؛ وآذاناً مرهفة تتلقف اضعف الاصوات .

ومع طلوع الفجر سمع هديراً خفيفاً راح يشتد شيئاً فشيئاً فقدر انه هدير دبابات الجيش ، وانتظر قليلاً ثم جازف ومدرأسه بين الاغصان التي تغطي الحفرة فاذا هو يري طلائع الجيش قد بدأت تقترب من الجسر فاقشعر جسمه ، ووجف قلبه ولكنه ظل مالكا اعصابه فعاد وانكمش على نفسه بضع دقائق ، ويده على السلك . لم يخفه سوى أمر واحد .. هو ان يطرأ على القنبلة أي خلل فلا تنفجر الانفجار الذي يتوقعه لها ويتمتم :

— يارب خذ بيدي ، يارب أعنّي . . لاتخذلني . . ويجذب السلك وتمر اللحظة الرهيبة . . . وإذا دوي هائل اكثر مما كان يتوقع ، تهتز منه الارض كأن زلزالاً قد اعتراها .

لم يجازف هذه المرة ويمد عنقه بل ظل مكوماً على نفسه وظلت أذناه تتلقفان الاصوات ، فاذا ضجيج وزعيق، وصراخ وأنين،ويشعر بالحزن يعصر قلبه فيسد أذنيه كي لا يسمع شيئاً ، آه كم يكره القتل .. لم يسبق له ان ذبح عصفوراً . ويقول في نفسه :

— ربي هؤلاء المستعمرون جعلوني قاتلاً بالرغم عني . وتسترخي اعصابه المشدودة فيشعر بالالم يدب في مفاصله وأطرافه ، وبرطوبة الارض تتسرب الى جسمه كأن حواسه كانت في شغل عنه فلما انهى مهمته راحت تستيقظ شيئاً فشيئاً ،وبدأ يشعر بضيق يكاد يكتم أنفاسه كأنه سجين في قمقم وما يدري كم مضى عليه من الوقت وهو ينتظر رفاقه حتى لم يعد يستطيع صبراً ، ويقرر أن يخرج من الحفرة ، ويعود الى بيته ليرى اباه للمرة الأخيرة ، وليقضي الله ما يقضي .

ويزيح الأغصان عن الحفرة ويمد رأسه وينظر الى مكان الأنفجار فيرى عجيج الغبار لم يهدأ بعد واناساً كثيرين يثيرون لغطا وضجيجاً . ويقفز من الحفرة ويتلفت يميناًويساراً كأرنب مذعور ، ثم ينفض عنه التراب ويسير متأنياً وهو يترقب في كل لحظة ان يقبض عليه ، ويسير مسافة طويلة دون أن يعترضه أحد كأن هناك قوة خفية كانت تعمي عنه الابصار ، ويفكر أن يستأجر عربة ليواري فيها نفسه ويمد يده الى جيبه فلا يجد فيها شيئاً من النقود ، لقد نسي محفظته في البيت ،هذه

غلطة يجب ان ينبه اليها رفاقه عندما يكلف احدهم بمهمة خطرة يجب ان يزود بشيء من المال لما يطرأ عليه من مفاجآت ليست بالحسبان .

ويظل جاداً في سيره ، فما زالت المسافة بعيدة الى بيته . ترى هل مات أبوه أم مازال يقاسي آلام الاحتضار ؟ وماذا يقول عنه أفراد اسرته وقد قضى هذه الليلة الرهيبة بعيداً عنهم ؟ لاشك سيتهمونه بالعقوق واللامبالاة ، وهو لا يستطيع أن يبوح لهم بالسر ليبرر لهم غيابه عنهم ، ويشرف على سوق الحميدية ، فيرى جنازة تتجه نحو الجامع الاموي يسير وراءها عدد قليل من المشيعين فيهبط قلبه ويتفرس بهم من بعيد فيرى أهله وبعض أصدقائه فيعرف انها جنازة أبيه ! ويشعر كأن خنجراً حاد النصل ينغرز في قلبه شيئاً فشيئاً ، ويظل مسمراً في مكانه حيران . أيركض ويأخذ مكانه وراء النعش وليحدث ما يحدث !ويتقدم منه رجل ويهزه بعنف ، انه احد رجال الأمن من الذين يعملون لصالح الوطنيين ويتجسسون على الفرنسيين في نفس دوائرهم.ويقول له :

ـ أمجنون أنت ؟ لم أتوقع ان أراك هنا !

ويسحبه الى منعطف متوار ، ويهمس في اذنه .

ـ اليست فعلتك؟ لقد حذرت .. حادثة اليوم عظيمة .. عظيمة جداً. انها أروع ما قمت به ، يقولون ان عدد الضحايا قد بلغ المئة ، والضباط الفرنسيون يكادون يجنون غيظاً .. ويحسبون ان دولة اجنبية تمد الثوار

بالعتاد وبالفنيين ، ومع ذلك الشكوك تحوم حولك ، اننـــا جادون في طلبك ، وقد امرنا أن نأتي بك حياً أو ميتاً !

ويرد عليه ساهماً كأن ماقاله الرجل لا يعنيه :

ـ أتعلم ان الجنازة التي كانت تمر من هنا هي جنازة أبي !

ـ أعلم ذلك ،والآن قد انتهى كل شيء ، يجب ان تفكر بنفسك ، أركب عربة أو سيارة واذهب الى مكان أمين . هيـــا دبر نفسك . لا أستطيع ان أقف معك اكثر مما وقفت .

ـ ولكن ليس معي قرش واحد .

ويمد موظف الأمن يده الى جيبه فيخرج شيئاً يدسه في يـــد خالد ثم يتوارى عنه مسرعاً .

ويصل خالد الى مكانه الامين ، الى البيت المنعزل الذي اتخـذه ورفاقه مقراً لهم . ويظل مختبئاً فيه أياماً ، والفرنسيون جادون في طلبه ولما يئسوا من العثور عليه ،اجروا له محاكمة غيابية وحكموه بالاعدام شنقاً!

استطاع رفاقه بعدئذ ان يدبروا له الهرب من دمشق.ويظـــل مشرداً عن بلاده حتى ينجلي عنها الفرنسيون .

بعد عشرين عاماً كاملة ويوم عيد الجلاء الأول ، أروع عيـــد عرفته بلاد الشام ، كانت هذه القصة تمر في خاطر رجل كهل وهـو واقف على ناصية الطريق القائمة على مدخل دمشق ، وكلما سمع الهتافات

الحماسية التي تطلقها حناجر الشباب رقص قلبه طرباً وامتلأت عيناه الوديعتان بالدموع ، وشعر بالاعتزاز يملأه لانه ساهم في صنع هذا اليوم العظيم ، ويسرح في نشوة عارمة الى أن يوقظه منها صوت شرطي ممن أوكل اليهم حفظ النظام كان يدفعه في صدره ، ويصرخ في وجهه قائلا :

ـ تنح ياهذا عن مكانك !. ألا ترى انه مخصص للرجال الرسميين؟

ويضحك خالد ملء فمه ، كانت فرحته في ذلك اليوم العظيم اكبر من أن يشوبها أي كدر .. ثم يقول للشرطي :

ـ الله يسامحك .. الحق معك يا أخي . أنا لست من الرسميين .

ثم يتراجع الى الوراء ، وينخرط بين الجموع الغفيرة التي يعلم الله كم كان بينها من مناضلين أمثاله ، ولكنهم دائما في الصفوف الأخيرة ، لأنهم شخصيات غير رسمية !.

الصقيع في الربيع

كانت طالبات الصف يقلن عنها : انها جذابة .. وان سر جاذبيتها كان يمكن في عينين سوداوين تتألقان في وجهها كنجمتين ، وفي غمازتين نادرتين تنطبعان على خديها الاسمرين كلما ابتسمت . وما أكثر ما كانت تبتسم ! فأيام حياتها كانت تجري هينة لينة لا كدر فيها ، كجدول ثر في منهل أخضر .

وذات يوم انقطعت ذات الغمازتين عن المدرسة ، وماعرف أحد سبب انقطاعها هذا ، الى أن تلقت بعد سنين عديدة احدى صديقاتها — و كانت تعنى بكتابة القصص — رسالة منها تروي فيها قصة حياتها وترجوها أن تنشرها بين قصصها لأنها تريد أن يقرأها الناس . وتقول لها في الرسالة فيما تقول :

أنها قصة قديمة ، ليس فيها شيء من طرافة الجدة ، ورغم ذلك فهي ما تزال كمشكلة قائمة في مجتمعنا ، ان استطاع بعضنا ان يتحرر منها فما يزال بعضنا الآخر ضحية لها حتى اليوم . ولذا فهي جديرة بالكتابة والمعالجة ، وهاهي القصة :

كان يترقبها كل يوم أمام باب المدرسة شاب اسمر طويل ، وان لم تتبين ملامحة جيداً من وراء حجابها الكثيف ، فان وسامته لم تخف عليها.

كان يسير وراءها يتبع خطواتها كأنه خادمها الأمين . حتى تصل بيتها ، و كان بيتها يقع في حي قديم لا تصل اليه إلا بعد أن تقطع أزقة ضيقة معتمة ، وتمر بطرق ملتوية ذات منعطفات . وكثيراً ما كان يخلو الزقاق من المارة فيسيران وحدهما فترة ليست بالقصيرة . كان صـــدى خطواته المتزنة الثقيلة عندما يختلط بوقع خطواتها الرشيقـة على بـلاط الزقاق يصل الى سمعها كموسيقى حـــلوة التوقيع لم يمح صداهـــا من ذاكرتهـا حتى اليوم .

كانت دائما تتوقع أن تسمع منه شيئا ، كلمه غزل رقيقة ،دعابة حلوة ، شأن غيره من الشبان الذين يدأبون على ملاحقة الفتيات مثيلاتها ، ولكن صاحبها هذا كان يظل سادراً في صمته ، بعيداً عنها لا يكاد يتعدى المسـافة التي تفصل بينها أبداً .

أما هي فكان جل ماتفعله هو أن تتراشق في مشيتها أكـثر من عادتها ، وان تشد احياناً معطفها على خصرها النحيل ليبدو جمـال جسمها وحسـن تكوينه .

ويظلان على حالتها تلك أكثر من شهر ، لا يخلف ميعاده معهـا أبداً ، وتصبح هي كأنها تنتظر هذا الميعاد ، وتحن الي رفيق دربهـا ، وتأنس به وتخشى ان تفقده يوما ما .

ولكنها بدأت تستثقل صمته ، وتتساءل الى متى سيطول هـــذه الصمت ؟؟.. أتبادئه الحديث ؟ . ولكن هذا لا يليق بفتاة محافظـة على التقاليد مثلها . . ويخطر لها خاطر مريـع يهلع في قلبها : لعـله أخرس ؟ وتستغرب هلوع قلبها . واذا هي تخادع نفسها وتموه عليها فتقول :

مالي وماله ؟؟.. ان كان اخرس او فصيحاً ؟ ولكن شيئا في اعماقها كان يهزأ بها ويقول لها :

لماذا يتشرد ذهنها اليه اذا حان الميعاد ، فلا تعود تفقـه من الدرس شيئا ؟ كانت تنظر الى ساعتها في كل لحظة تستبطيء سير الزمن وتتمنى ان تطير اليه في كل لحظة ليسيرا معا في جلال صمتهـما المهيب الى آخر الدنيا .

وذات مرة قبل ان تصل الى دارها بخطوات يمر بها شاب وقح من شباب الازقة ،يستغل خلو الزقاق من المارة حين لم يفطن للعاشق الصامت الذي كان يسير وراءها غير بعيد عنها ، ويروح يتحرش بها فيسيرملاصقا لها ، ثم يمد يده فيمس خصرها وهو يعرض بهابأغنية شائعة آنذاك :

«يام الخصر المشوق حيرتيني من اين امرق »

واذا هي تسمع صوت صاحبها يصرخ به :

ـــ اخرس يا قليل الحياء .

ثم يتناوله بصفعة حامية تجعله يترنح من الرصيف الى الرصيف . .

وتتوقف هي عن السير قليلا ، وشعور مفاجيء من التيه يملأ نفسها، وتتمنى في تلك اللحظة ان تعيش في ظل حمايته طول عمرها . . وتجدها

فرصة مناسبة لان تحدثه . فتلتفت اليه وتتفرس في وجهه عن قرب ،من وراء حجابها فتؤخذ بوداعة عينيه العسليتين الواسعتين وتقول له مرتبكة:

— شكرا . . . الله يسلم يديك.

فيبتسم في وجهها بخجل ويقول :

— من يستطيع ان يمسك بسوء ؟ ؟

ثم يردف هامساً :

— غداً ستبدأ العطلة ، ولن اراك حتى تفتح المدرسة !!

كان يقولها بلهجة عميقة الاسى ، وما يكاد يتمها حتى تجد نفسها فجأة امام دارها فيحييها بهزة من رأسه ثم يتابع دربه .

كان ذلك في آخر يوم من شهر رمضان ، وفي الغد ستغلق المدارس ابوابها بمناسبة عطلة العيد .

دنيا جديدة انفتحت امامها ، كل شيء كان فيها يضحك .. ما احلى رسم هالات مضيئة حول حبيب مجهول ، وما اجمل الانتظار على امل اللقاء . .

كانت ايام هذا الاسبوع الذ ايام حياتها ، عاشتها بكل ذرة من ذرات كيانها .

وكانت امها قدقالت لها ذات يوم :

— لقداصبحت صبية على عتبة الزواج ، سأشتري لك بضعة اذرع من حرير ملون لتطريزها قمصانا للنوم في اوقات فراغك . فما احلى الصبية التي تطرز جهازها بيدها . وتشتري امها الحرير . ولكنها لم تهتم به ابدا . تركت الرزمة كما هي مهملة في احد ادراجها ، وكلما حثتها امها على التطريز

انتحلت لها الاعذار ، ولكنها في ذلك اليوم كانت ترغب ان تخلو الى ذاتها ، فلا تترك مجالا لاحد يطالبها بعمل ما . لتدع خيالها يلعب ،ويفتن باللعب كما يشاء . فاخرجت رزمة الحرير واختارت منها قطعة بيضاء رسمت عليها ازهاراً في زاوية ربيعية ، وجلست من زوايا ساحة الدار ، في ظل شجرة ليمون، كانت امها قد غرستها يوم ولدتها ، كما اعتادت كلما ولدت ولدا .

هناك تحت شجرتها المفضلة قعدت تطرز . في كل غرزة كان يورق لها حلم ، وتغرد امنية كما تغرد اجواق العصافير بين اغصان الليمونة الغينانـــة .

دفء الربيع ، وشذى زهر الليمون،ودغـــدغات الحب البكر في القلب الفتي ، واخضرار الامل في عيني بنت السادسة عشر ، كؤوس خمر مترعة لكل رشفة نشواتها.. اراجيح ملونة تتلاعب بها فوق الغيوم.

لم تخرج اثناء العطلة من البيت ، فقد ابت ان ترافق امها في زياراتها كما هي عادتها . ظلت مكبة على تطريز احلامها حتى انهت القميص قبل يوم العطلة بيوم واحد . ولما رأته امها دهشت من جماله واتقان تطريزه، فقالت لها :

ـــ ما كنت اعرف ياخبيثة انك تجيدين التطريز الى هذا الحد ، انا لم ار احلى منه عمري . اتمنى يا بنيتي ان ترتديه وانت عروس لرجل يسعدك طول حياتك . فاشرق وجهها ولمعت عيناها ، وهمت ان تحدث امها عن الرجل الذي اختارته ليسعدها وتسعد ،مدى الحياة . ولكـن الكلمات

جمدت على شفتيها ، خشيت تزمت امها وان تنكر عليها معرفتها برجل غريب . وآثرت ان تتحدث اليه اولا . غدا ستفتح المدرسة ، وستراه حتما ، وستطلب اليه بوضوح ان يخطبها من ابويها او ان يكف عن ملاحقتها.

في ذلك اليوم عاد اخوها من عمله متجهم الوجه ، وانكرت منذ دخل البيت تصرفه معها. لاحظت انه كان يراقب كل حركة من حركاتها وكأنه يحاول ان يخترق بنظراته الثاقبة رأسها الصغير ليعرف ما يدور فيه من اسرار . لم تكن في يوم على وفاق مع اخيها الوحيد الذي يكبرها بخمس سنوات . وكان من الذين يحبون ان يفرضوا سيطرتهم على كل من حولهم ولكن سرعان ما كانت تتناساه وتسرح من جديد في خيالاتها المجنحة ...

عادت الى المدرسة وبدأت تترقب المدرسة منذ الدرس الاول ، وما مرت عليها ساعات بطيئة ثقيلة كمثل تلك الساعات .

ويحين الوقت فتخرج من المدرسة وتلمحه واقفا في مكانه كالمعتاد ، فيكاد يطير قلبها اليه . وتتابع سيرها ، ويسير هو خلفها غير بعيد عنها كما هي عادته . كانت مضطربة مرتبكة ، تحاول في كل لحظة ان تلتفت اليه ، وتحدثه بما عزمت ان تحدثه به ولكن شيئا ما كان يلجم لسانها . وتتساءل :

هل سيعود الى صمته الثقيل ؟ ؟ ام لان الطريق لم تخل اليوم من الناس ؟ وهو لا شك حريص الا يسيء الى سمعتها فيما اذا تحدث اليها ورآه احد معارفها ، او اقاربها .

وسرعان مايمضي الوقت وتصل بيتها فما عرفت طريقا قصيرا ابدا كما عرفته اليوم .

واذا هو يتقدم منها بخجل وحذر ويدس في يدها رسالة زرقاء .

آه ما احلى رسائل الحب ! . . هذه اول رسالة حب تتلقاها . . .

ولكن لم يكتب لها ان تقرأها ابدا !!

لقد انشقت الارض عن مارد يخطف الرسالة من يدها ، ويدفعها بعنف الى الدهليز ، ثم يغلق الباب خلفها ويعود الى الطريق ليحاسب صاحب الرسالة حسابا عسيرا !!

قصة حبها ماتت في المهد .

لقد ضفر اخوها من موتها الحزين اكليل شرف يتوج به جبهته .

راقب اختك : كلمتان لئيمتان حملها البريد الى اخيها في ورقة بلا امضاء . ويراقب الاخ اخته ، فتقع في الفخ من اول يوم !

لا شك ان كاتب الرسالة هو الفتى الرقيع الذي تحرش بها ذات يوم فقد لمحته يضحك شامتا ساعة دفعها اخوها الى البيت. لقد عرف الوضيع كيف يثأر لنفسه .

اما ابوها — بعد ان بلغته القصة — فلا يريد ان يرى وجه النحس ابدا، تلك التي تجرأت على خدش شرف الاسرة الرفيع .

قطع الله نسل البنات . . . ولولا براءة الرسالة التي وصلتها ونبل قصدها لكان للسكين والدم والبالوعة دور في القصة !! .

ويصدر الحكم بان تنقطع عن المدرسة ، وان لا تخرج من البيت الا في صحبة امها ، ولامر ضروري .

حتى امها الحنون كانت قاسية في لومها ، ولم تستنكر هـذا الحكم الجائر ابداً .

ثي عيني اخيها تلتمع فرحة الانتصار ، وفي اصابعها رغبة ملحة لان تستل هذه الفرحة اللئيمة من عينيه . ولكن يدها مشلولة لا ترتفع ، وثورتها الجامحة تظل مكبوتة في اعماقها لا تجرأ على الظهور . انها تـدرك تماما بان اخيها لا يريدها ان تتزوج ابداً . . . سيضع العقبات في طريـق زواجها ما امكنه ليستأثر وحده بثروة ابيه ، ويجعلها اسيرة في بيتـــه كحشرة في بيت عنكبوت يقيدها الف قيد واه وهي اضعف من ان تفلت من قيودها الواهية .

آه كم تكره هؤلاء الذين اقاموا انفسهم حماة لها . . ولكـن مادا تستطيع ان تعمل غير ان تحبس نفسها في غرفتها الصغيرة كلما ضاقت بها الدنيا .

الصقيع يملأ ارجاء الغرفة الصغيرة . . وكآبة سوداء تلف كل شيء فيهـا . . قميصها الجميل الذي طرزت عليه احلامها معلق على المشجب كفتى وحيد مصلوب امام عيني أمه ! ! . .

وتتناول برفق ، وتطويه بحنان ثم تدفنه في قعر صندوق عتيق ليأكله العث على مهل .

أصبح ليلها طويلا بلا نجوم ، وعيناها حزينتين بلا دموع ، والقهر حجر صلد يربض فوق احشائها ولا يتزحزح أبداً .

في صباح ذلك اليوم بالذات سمعت أمها تشهق وتقول لابيها :

ـ ياويلي ماالذي جرى لشجرة الليمون ؟ ؟ . .

البارحة كانت كالعروس ، واليوم ذبلت أوراقها مرة واحـــدة وسقطت جميـــع أزهارها ! . . انظر كأن بساطاً من زهر أبيض مفروش حولهـا .

وكان أبوها قاعـداً في صدر الايوان ، كسلطان من سلاطين الف ليلة ، يدخن النارجيلة بإسترخاء . ويسحب النربيش من فمه ويقول :

ـــ ربمـا أصابتها لفحة صقيـع . ..

وتقول أمها :

ـــ ومن أين جاء الصقيع ونحن في الربيع؟ ؟ . .

ويقول أبوها :

ـــ وليس اقتل من الصقيع في الربيع . . ما أحسبها تنجح بعـد اليوم ومن الخير أن نقطعها .

كان يقولها ببرود ولا مبالاة يثير ان الغيظ و الحنق في قلب الام، فتجيبه بنزق :

ـــ اعوذبالله ! فأل الله ولا فألك ! انني اتشاءم من قطعها. لا . لا لن يقطع الليمونة أحد وانا حية .

ويلوي شفتيه من سخف كلامها ، ويعيد النربيش الى فمه ، فيسحب نفساً طويلا تكركر له النارجيلة بلادة .

ذهب ربيع واتي ربيع ولم تبرعم شجرة الليمون زهرة واحـدة . كان ماء الحياة يجف في اغصانها يوما فيوما ، منذهجرتها اجواق العصافير ومنذ تساقط أوراقها ونتأت أشواكها حادة كالخناجر . .

وتنزاح الستارة ذات صباح أمام عيني الام عن مأساة مريعة . . .
كانت تتفرس في وجه ابنتها الشاحب وتتساءل برعب :
أين اختفت الغمازتان الحلوتان ؟ وكيف حل محل كل واحـدة منهما غضون. اذا ضحكت الصبية اقتربت الغضون من بعضها وبـدا وجهها كوجه عجوز هزيلة . . ، وهكذا العينان البراقتان اصبحتا كهفين أسودين انطفأت فيهما الاحزان ! !
ولكن ماذا تستطيع الام ان تفعل ؟ هي أيضاً امرأة تقيدها خيوط العنكبوت .
ويستحيل الكمد في قلب الام سرطاناً يأكل كبدها بنهم ويزداد شراهة كلما خطرت ببالها جملة مخيفة مرعبة :
وليس اقتل من الصقيع في الربيع .

العودة أو الموت

لقد سدت في وجهي جميع أبواب الرزق . . لذلك لم أجد مناصاً من الرضى بأن أعمل سائق سيارة للاجرة . غير أنني اشترطت على رب العمل صاحب السيارة بأن يكون عملي في الليل رغم ما في ذلك من مشقة وجهد ، فالليل اخفى للويل كما يقولون .

كنت اقبع منكمشا على نفسي خلف مقود السيارة اواري وجهي من المارة خشية ان يراني احد معارفي او اصدقائي .

كنت اتخيل الدهشة التي ستعتريه ،والاسف المرير الذي سيرتسم على وجهه وهو يحدق الي كأنه يقول في نفسه وقد خامره الشك في امري :

لك الله يانكبة فلسطين ! ! احقاً ما أرى ؟ ؟ . .

ايصبح حسن بك سائق سيارة للاجرة ؟ ! . هذا الذي كان احد الوجهاء البارزين في يافا ، والذي كانت هوايته الوحيدة هي اقتناء السيارات الفخمة ، حتى كان يبدل سيارته كل عام بسيارة جديدة.

واتمثله كيف يدور على عقبيه ثم يختفي من امامي ، اما رحمة بي واشفاقاً علي ، او تحاشياً لما قد يحرجه من حالي .

على انني ما لبثت وقدم الزمن ، حتى تبلد احساسي ، وتجمد شعوري، ولم تعد تمر بخاطري امثـال تلك الخطواطر السخيفة . لقـد الفت عملي هـــذا واستكنت اليه ، ورضيت بالواقع المرير ، واصبحت اعيش ليومي فقط ، واعمل كآلة صماء . لقد تساوت في نظري قيم الحياة ومفاهيمها ، فلا فرق عندي بين خيرها وشرها ، رفيعها ووضيعها ، واصبحت تراني احـــدق الى المارة وانا خلف مقود السيارة كأني اتحداهم واحـداً واحداً ، او كأني اقول لهم :

أنا فلان بن فلان وقد اصبحت كما ترونني فأي دعوى لـكم عندي ؟؟.

وكنت قد اتخذت لسيارتي موقفاً اتصيد منه الركاب امام ملهى ليلي مشهور قرب مطار دمشق .

وذات ليلة عاصفة وقد اربت الساعة على الثانية بعد منتصف الليل ، وانا ما أزال قابعاً في مكاني خلف المقود ، انتظر خروج رواد الملهى ، واقاسي سآمة الانتظار ، وقساوة الـبرد ، ادخن اللفـافة تلو اللفـافة واعصابي في خدر ثقيل ، لاشيء يثير اهتمامي ليذكرني بيوم كنت فيـه من رواد امثال هـــذه الملاهي ، بل من زبائنها المرموقين . . كادت تنقطع كل صلة لي بالماضي الذي اخذ يبدو لي على قربه سحيقا ، سحيقا كأنه مغطى بضباب كثيف .

ويخرج من الملهى رجل قصير بدين والى جانبه امرأة فارعة الطول، وأراه بعـد قليـل يشير الي بطرف اصبعه ، واسارع لتلبية طلبه ، . . لقد اعتدت على تلبية اشارات الاصابع كأي سائق عتيق . . وتنساب

سيارتي الى حيث قد وقف ، والى جانبه المرأة الفارعة . وما يكاد ضوء السيارة يقع على وجهها حتى اعرفها لاول وهلة رغم ماطرأ عليهامن تغير .

كانت هي (ميمي) بعينها . . تلك الحسناء اللعوب التي كانت تعمل في ملاهي يافا قبل النكبة . وكان قد سبق لي ان عاشرتها آنذاك مدة طويلة اغدقت عليها خلالها اموالا طائلة حتى اذكر انني اهديتها فيما اهديتها سيارة بويك خضراء . وما كدت اعرفها حتى اعتراني ارتباك شديد فخطر لي ان اتراجع ، ولكن يد الرجل كانت قد ادركت باب السيارة . . مرت (ميمي) من امامي واستوت في السيارة الى يمين الرجل دون ان تلتفت فتراني او تأبه لي واستطعت ان احدق اليها قليلا .

ولم يعد في نفسي ادنى شك من انها هي بنفسها . ولكن المسكينة كانت ترتدي ثيابا رخيصة على غير عادتها وقد اختفت اناقتها ، وتلاشت كبرياؤها التي قلما كانت نرى على مثيلاتها من النساء . وبدت لي وكأنها على ابواب الكهولة ، رغم انها لاتزال في ريعان صباها . وخيل الي انني استطيع ان اسيطر على اعصابي المضطربة . . . ما هي الا دقائق وستمر بسلام . . ، واخذت اشعر بغصة مريرة واقول في نفسي :

يالتصاريف القدر ! اين انا اليوم من يوم كنت فيه اسوق سيارتي الخاصة والى جانبي (ميمي) في عز شبابها وجمالها يحسدني على صحبتها كثير من الشباب . وخطر لي ان التفت اليها واقول مازحاً :

حتى أنت ، لقد أزرى بك الدهر بعدنا ! ! . .

وما أدري لم اعترتني رعدة هزتني هزاً عندما سمعت صوتها ذا الرنة

الشجية والتي كان سحرها يبلغ اعماق نفسي وهي تحدث الرجل قائلة له :

— أين هي سيارتك ؟ أعرف ان لك سيارة خاصة .

ويجيبها الرجل بصوت ثمل :

— لقد بعتها من امد قريب . لانني ارغب في شراء سيارة من طراز جديد .

وتقول ميمي :

—ياسلام ! عظيم ! عليك بالبويك اذن . لقد جربتها . . ليس بين السيارات سيارة تضاهيها فخامة ومتانة . كان عندي سيارة بويك خضراء اهداها الي صديق عزيز .

ويقاطعها الرجل بلهجة ساخرة ، وكأنه ظن ان المرأة تلمح له ليشتري لها سيارة ، اسوة بصديقها العزيز :

— ياسلام . . انت كان عندك بويك ! ؟ . . ومن هو صديقك العزيز هذا الذي يهدي السيارات البويك ؟ ؟ . .

وترد عليه بلهجة مفعمة بالاسى :

— هو من يافا . . وقد مات المسكين شهيداً في حرب فلسطين ! .

ويقهقه الرجل وهو يقول :

— الله يرحمه . . . ويغرقه برحمته . . . خلصنا منه الحمد لله .

وأكاد اشهق دهشة من جوابها غير المنتظر . . ومالبثت ان وجدتني اقود السيارة ساهماً . . فاغراً فمي ، محلقا بلا شيء ، وانا اقول في نفسي :

— أميت انا اذن في نظر بعض الناس ؟ ؟ . .

اماتتني اللعينة بسهولة لا مزيد عليها !.. بكلمتين فقط ، كلمتين باردتين .. كم اصبحت هيناً عليها !.. اماتتني وهي تعلم يقيناً انني حي ارزق .. ولكنني ميت في نظرها مادمت معدماً ، لاجئاً ، مسكيناً، لا يملك شيئاً . هــــل نسيت اللعينة الاموال التي اغدقتها عليها ؟. ماذا يحدث لهـا ياترى لو انني التفت اليهـا الان ، وأضأت النور ، واريتها وجهي ثم قلت لها: رحمة الله على شهيدك الكريم !!..

هممت ان افعل ذلك ولكنني ما لبثت ان تراجعت وانا اقول في نفسي:

لا لا .. لا يحق لي أبداً ان احرجها او اربكها ، وقـد منت علي ساعة لفقت هـذه الكذبة ، واختارت لي هـذه الميتة الشريفة الكريمة شكراً لهـا .. لقد اماتتني والله حيث كان يجب علي ان اموت ... اليس الموت خيراً من هذا الهوان ؟ ؟..

ويفوتني بعض حديثها ، ثم اسمعه يقول لها بسخرية لاذعة :

ـــ ان صاحبك اليافاوي هذا كان كريماً متلافاً ، وبطلامغواراً في آن واحد . لقد اهداك كما تقولين سيارة بويك ، وهذا ليس بقليل ، ولكنه اهدى فلسطين روحه !.. فهو كريم متلاف في كل الميادين على ماأرى . وكان يشد على الكلمات ويعطيها امعاناً في السخرية .

وترد عليه متصنعة الغضب والنزق :

ـــ ما أقساك ! .. اتهزأ حتى بالشهداء الابرار ؟.. اطو لنـا هذا الحديث، اخشى ان يجرنا الى جدل ينتهي بخناقة . انت دائماً لا تصدق ماأقوله .

ويجيبها ببرود :

— والله انني لا أهزأ بقولك ...وهل اجرأ على ذلك ؟ ؟.. ومتى كنت لا اصدق ماتقولين مهما كان نوعه ..؟

ولكنني استغرب ماسمعته منك الان ، فانا أعرف تماماً ان الرجال الذين يجودون بالسيارات الفخمة على الحلوات امثالك في مثل الظروف الحرجة التي كانت تمر بهـا فلسطين لا يمكن ان يكونوا من الصنف الذي يجود بأرواحه من اجل بلاده . فصاحبك هـذا على مايبدولي نسيج وحده ، ولذا فقد حاز كل اعجابي ، وتقديري ، واحترامي .

قالت :

— يالهي .. الا تكف عن سخريتك منه اليوم ؟ ؟ انا اعرف ان مبعث ذلك هو الغيرة .انت غيور لاتستطيع ان تسمع مديحاً لغيرك ولو كان ميتاً ، ولا تستطيع ان تخفي شيئاً في نفسك . الم اقل لك دعنا من حديثه ؟ .. الله يرحمه ..

فقهقه ضاحكا ثم قال :

— اناغيور ؟ ؟.. ما أبعد الغيرة عني ! .. ما كنت والله لاغار من اصحابك الاحياء فما قولك بالاموات منهم ؟.. ان الرجل الذي يستطيع ان يثير غيرتي لم يخلق بعد ، ولن يخلق ابداً .

قالت بدلها المعهود :

— كم يعجبني غرورك .. انه يستهويني .. ما احلاه..

وكان جوابه لها قبلة طويلة، صك صوتها مسمعي واحدث في رأسي دويا، وفي يدي اضطرابا. وشعرت برغبة ملحة في ان اسدد ضربة شافية لهذا الثقيل تهشم

اسنانه . . ولكن لم كل هذا التجني ؟ ؟ . . ألان الرجل نطق بالحق ...
ألم اكن في الواقع واحدا من هؤلاء المتماونين ،اللامباليين ، الذين قصروا
في حق بلادهم فلسطين ولم يؤدوا ما عليهم من دين لها؟. الم اكن اعيش على هامش الحياة
لا ابالي بكل ما يجري حولي من الاعيب الاستعمار حتى أصبحت احدا ضحاياها ؟!
وانتبه فجأة فاذا انا اقود السيارة على غير هدى ، وكأنها قد جمحت
بي ،فاذا انا اسير في طريق مظلمة، ما ادري والله كيف انتهيت اليها ،وتداعت
اسم الشارع الذي سماه لي الرجل وهو يركب السيارة.ويتنبه الرجل ايضا
وانا في حيرتي هذه فيصرخ بي قائلا :
—العمى يعميك ، اما حمار بليد !! الى اين انت ذاهب بنا ؟؟
واشعر بدمي يفور ، وبصدمة واحدة الى رأسي ، واجزم ان لم احسن
الهرب في اسرع ما يمكن فأنا مقدم على امر فظيع .
ودون ان افوه بكلمة اوقفت السيارة ونزلت منها بسرعة وصفقت
بابها بكل ما لدي من قوة ، واسرعت الخطى وتواريت في منعطف مظلم ،
وتركتها حيث هما يصخبان .
ليحدث ما يحدث . . . ولتهو السماء على الارض . . . لم اعد احتمل
اكثر مما احتملت .
ورحت اهيم على وجهي في الظلام تصطرع في نفسي احاسيس لا عهد
لي بها . كأني كنت في سبات عميق ، فلما وقعت في هـــذا المأزق
تنبهت فجأة وفتحت عيني على حقيقة بشعة ، وثار ضميري كما لم اعرفه
بدأ ، ماردا عملاقا ، كما هو الان :

كيف خرجت من بلادي ؟ ؟ . . وكيف رضيت هذا الذل والهوان واستكنت اليها ؟ . . ولم لا أعود اليها فأروي ارضها الطيبة بدمائي ، كما انطق الله هذه المرأة التافهة .

ان عزيمة صادقة راحت تتفجر في كياني ، استطيع الآن ان اتخطى الصعاب ، واقتحم المهالك . . واجدني اعدو في الظلام كأن هـــذه الافكار تدفعني الى العدو ، وترتسم في مخيلتي شطآن يافا وبيارتها الخضر فيخيل الي انني بالغها الآن .

ما أروع ان يكون للانسان هدف يسعى اليه ، كل مافي يصرخ : «العودة او الموت . ولن احيد عنها ابداً» .

ومضة برق

اطفء النور . . انه يرهق اعصابي ويتعب عيني .

قالت ذلك — وهي تتحاشى النظر اليه — بصوت خفيض ، فيه رقة ، وفيه عذوبة ، رغم لهجته الآمرة .

ودون اي اعتراض — شأنه معها دائماً — وضع الكتاب الذي كان يقرأ فيه جانباً ، ومد يداً معروقة ،طويلة الاصابع قد انتثر عليها شعر أسود ، وادار زر الكهرباء ، فعم غرفة النوم الانيقة ظلام حالك ، وسادها صمت ثقيل .

ويظل هو مستوياً على سريره كما كان، متجهاً صوبها . وتظل هي ساكنة ، ممددة على سريرها المقابل لسريره ، واضعة يديها على صدرها ، متجهة بناظريها نحو سقف الغرفة .

لكم تمنى هو في تلك الليلة الباردة ، ذات العواصف الهوجاء ان يضم جسمها اللدن الصغير بين ذراعيه ، فينعم بدفء انفاسها ، وطيب عبقها . . ولكنها كانت قد افهمته وهي تخلع ملابسها وترتدي قميص النوم : انها تعبة جداً هذا المساء ، يرهقها النعاس ، ومنذ اكثر من ساعة وهي

تتمنى ان ينصرف الذين اطالوا السهرة اكثر ممـا ينبغي لترتمي في سريرها وتستسلم الى النوم الذي الح عليها كما لم يلح أبداً .

قال في نفسه :

يالها من صغيرة ماكرة ! . . كم تجيد اختلاق الاعذار ، وكم تتقن التمثيل . . اتراها تكرهني وتضيق بي ؟ ؟ .

كل يوم تطالعني بعذر حتى تهرب مني على هذا النحو . . . متى الح عليها النوم ؟ ؟ . . منذ لحظة فقط كانت تبدو امام الضيوف نشيطة مرحة حتى اذا اغلقت الباب خلفهم بدأت تتثاءب وتتكاسل وقـد فتر لحظها ، وتراخت اجفانها .

وتذكر انهـا منذ اكثر من اسبوع تصرفه عنها كل ليلة بعذر من هذاالقبيل فكان يخادع نفسه، ويغالطها وبرغمها على تصديقها فيتقبل اعذارها برحابة صدر . وكأنه كان يفعل ذلك كله وهو لايعي مايفعل لانه يريد ان يثبت لنفسه انها لاتكرهه ، ولا تضيق به ، وان كانت تبدو له غير مندفعة في حبه كما يتمنى ويشتهي .

وكان منذ تزوجها — ولمـا يمض على زواجها سوى سنة واحدة — قد آلى على نفسه ان يكون معها متسامحاً ، وديعاً ، مرحاً ، كريماً لايرد لها طلباً ، حتى يفوز بحبها ولو ان الفارق بين عمريها ثلاثون عاما . . فهي لم تتخط العشرين ، وهو قد دلف الى الخمسين . ولكنه رغم ذلك مازال يثق بنفسه ، فهو لم يتقن شيئاً في حياته كاتقانه فن مغازلة النساء . وانه

لمؤمن بأن لديه من الاساليب التي اكتسبها من كثرة معاشرته لهن مايجعلها تدله في حبه يوما ما ، كما سبق ان تدله الكثيرات غيرها .

ماقيمة العمر ، وعدد السنين ؟ مادام يشعر انه مازال شاباً يتمتع بكل مايتمتع به الشباب من حيوية ونشاط .

كما انه لايزال محتفظاً بوسامة ونضارة تثير ان استغراب الكثيرين من اصدقائه ومعارفه ، لا سيما الذين يماثلونه في العمر .

ولكنه في هذه الليلة بالذات بدأ يشعر بخيبة مريرة لا يستطيع ابداً ان ينكرها ، او يموهها . . وتجاه من ؟ ؟ . . تجاه المرأة التي انهى عندها مطافه . . واختارها بعد تفكير وروية من بين كل من عرفهن من النساء لتكون شريكة حياته مدى ماتبقى له من العيش . . وكان قد أزمع فيما بينه وبين نفسه ان يخلص لها كما لم يخلص لغيرها أبداً .

فأي خيبة مريرة مني بها الآن ؟ ؟ ! . .

ولا يدري لم مر بخاطره في زحمة افكاره المضطربة وهو مازال على جلسته تلك في الظلام الدامس اسماء رجال من معارفه اخذ عليهم انقيادهم الاعمى لزوجاتهم ، واستكانتهم لهن ، وطغيان هؤلاء الزوجات عليهم حتى أصبحوا هزأة ! . . وكان هو — قبل ان يتزوج — اكثر الناس تندراً بهم ، وتنكيتا عليهم .

ويتنبه ذهنه فجأ الى نظرة ذات معنى كان تبادلها اثنان من ضيوفه هذه الليلة ، والى ضحكة اخفياها عندما غير رأيه في قضية تتعلق بالسياسة مسايرة لرأي سخيف ابدته زوجه . كما تذكر أيضاً كيف

عدل مرة عن مشروع هام كان قـد باشر العمل فيه في قرية نائية ، لان زوجة لم توافق على العمل فيه ، ومازالت به حتى اقنعته بالعدول عنه ، كل ذلك لانها لاترغب في سكنى القرى ، ولم يسعه الا النزول مستكيناً عند رأيها — شأنه معها دائماً — .

ويتضح له انه أصبح دون وعي منه واحـداً من هؤلاء الرجال المستكينين لزوجاتهم ، الذين يتندر بهم الناس ، ويجعلونهم هزأة في مجالسهم ! ! .

ولاول مرة منـذ تزوجها شعر نحوها بشيء من المقت والكره ، وراح يتساءل لـماذا تتكبر عليه هـــذه الصغيرة الحمقاء ؟ ؟ .. ولم يضعف امامها ؟ .

أنها ليست ذات جمال نادر ، او ذكاء فارط كما تظن نفسها ، وهو في الواقع لايهتم بهـا ، ولا يتألم من أجلها فمـا اكثر امثالها في النساء ، ولـكنه يخشي ان تهان كرامته ، اوتجرح كبرياؤه ! .

ماله يقف حيران مرتبكاًأمام هـــذه المرأة التافهةالتيهي زوجه؟؟ هو الذي كان الى حين قريب تياها على نساء يفقنها في كل شيء ، وكن يتهافتن على وده رغم كهولته وشبابهن ، ورغم ماعرف عنقسوته عليهن. لا شك انه اخطأ عندما افرط في تدليل هـذه الصغيرة ، حتى أصبحت تستهتر به ، ولا تأبه له أبداً . ويتذكر حادثاً طريفاً مر به وهو في عز شبابه ، فقد صفع مرة خليلة له غالية عليه امام الناس في حفل كبير لانها ابتسمت لرجل كان يـكرهه ويغار منه .ثم ندم على ما بدر منه من قسوة

وعـدم لياقـة فقرر ان يذهب اليهـا اذا أصبح الصباح يستغفرها ، ويسترضيها ، فاذا هي تسبقه الى ماعزم عليه ، وتسعى اليه في الصباح الباكر باكية تطلب عفوه ورضاه ، وكأنها هي المذنبة . ويتذكر كيف عاد اليه صلفه وتيهه فلم يرض عنها الا بعد جهد طويل .

قال في نفسه :

بمثل هـــذا يجب ان تعامل النساء .. ومالي حـدث عن الطريق، أليست هـذه واحـدة من النساء ؟ .

ويلتفت نحوها ، ويهم ان يصيح بهـا يوقظها على نومها ليناقشها حساباً عسيراً . ولكنه عاد فتراجـع ، وكظم غيظه وارجأ ذلك الى الصباح .

قال في نفسه :

لم كل هذه العجلة والايام بيننا ؟ .

كانت العواصف ما تزال تصطرع بشدة . الرعد يزمجر . المطر ينهمر . البرق يلتمع ، ويتوقف سير تفكيره عندما يرى من النافذة العريضة التي تواجه سريره تماماً صفحة السماء الدكناء يرسم عليها البرق أشكالا غريبة رائعة . فراح يتأملها ساهياً لاهياً كطفل صغير . فاذا ومضة برق هائلة يقتحم سناها النافذة تتبعها ومضات متتالية فيضيء الغرفة المظلمة نور وهاج وبنظرة خاطفة يلمح وجهها الذي ما يزال متجهاً نحو سقف الغرفة وقـد تقلصت قسماته بشكل يدل على انها تبكي .. ويظل في مكانه ســـادراً يفكر ، ثم يتناهي الي سمعه عند هدأة الرعد صوت انفاسها مضطربـــة مبهورة تتخللها شقهات مكبوتة . ويتأكد له بكاؤها .

واذا ثورته تهدأ شيئاً فشيئاً، ويحل محلها حنان واشفاق. فما كان ليخفى عليه ـ وهو العليم بطبائع النساء ـ انها تقاسي كثيراً ، فقلما تبكي المرأة في الخفاء الا اذا بلغ منها الالم كل مبلغ . ماذا يشقيها ويؤلمها يا ترى ؟؟.. لا شك انها تخفي عنه امراً هاماً .

وبحركة لا شعورية يضي الكهرباء . واذا هي تخفي مسرعة وجهها بزندها ، وتظل ساكنة لا تأتي بحركة ، وصدرها يعلو ويهبط كأنها تعاني ضيقا في تنفسها. ويقوم عن سريره ويجلس على طرف سريرها، ويسألها بلهجة تكلف فيها اللامبالاة :

ـ مالك تبكين ؟.

ـ أشعر بصداع اليم .. قالت ذلك دون ان تتحرك ، اوترفع زندها عن عينيها .

ـ هاها .. الصداع لا يبكي بهذا الشكل .. ولم تتحملينه ؟ الامر بسيط ، حبة اسبرين واحدة تريحك منه .

ـ اشعر ايضاً بضيق يكاد يخنقني ، ربما لا يفيدني الاسبرين ..

ـ اجلسي ، اجلسي .. لي معك حديث .. تعالي نتفاهم بهدوء وصراحة . واذا استطعنا التفاهم ، لا بد ان يزول عنك الصداع ، وينجلي الضيق .

ـ لا داعي لكل ما تقول .. ارجوك ان تتركني الآن .. فلست قادرة على الحديث معك .

ـ لن اتركك ابداً .. كفاني ما لقيت منك !.. وكان يقول ذلك بصوت

عال ولهجة قاسية اكسبته السيطرة على الموقف حالا . ثم يسحبها من يدها بقوة فتستوي جالسة امامه وجها لوجه على حافة السرير ، وقد بدا الرعب على وجهها فزاده جمالا ، وراح يحدق اليها فلم ير ابداً اجمل منها في تلك اللحظة . كانت شاحبةاللون ، قد اتسعت عيناها السوداوان المخضلتان بالدموع دهشة لما حدث ، ولما سيحدث، وانتثر شعرهاالاسود الغزير على كتفيها بلا انتظام . واحست ان غلالة النوم قد مالتعن عنقها، وانحسرت عن كتفها البضة المستديرة فتسحبها بعصبية وتحكمها حول عنقها كأنها تحاول ان تستتر امامه ماأمكنها . ويلاحظ هو ذلك فيبتسم بمرارة .. وشعر منذ تلك اللحظة كأن هوة كبيرة قد انشقت بينهما ففصلتها عن بعضها وتركت كل واحد منها في ناحية .

وتمضي فترة صمت ثقيلة ، كان هو يتفرس في وجهها وهي تتحاشى النظر اليه ، ثم يقول لها بعد ان تغلب على اضطرابه فبدا هادئاً :

— اني اشعر منذ تزوجتك انك لا تحبينني ! . وانك لست سعيدة أبداً بالعيش معي . . لم رضيت الزواج بي اذن ؟

— انا .. لم . . وبلعت الكلمات ، وراحت دموعها تتساقط على خديها قطرات كبيرة بلا نشيج ، وهي مطرقة الرأس بصمت محزن ، وفمها مطبق .

— فهمت كل شيء . ولو ان فهمي جاء متأخراً جداً ! ! .. لقد اجبرت على الزواج بي. .اليس كذلك ؟ .. انه ابوك الغبي ، ومن ورائه زوجة ابيك . لقد عرفت الماكرة كيف تغشني ، وكيف تستغل

ضعفك فتسيطر عليك يامسكينة وتجبرك على الزواج بمن لاتحبين ! ! . .

ولكن هذا كله على مافيه من ظلم لا يبعث على البكاء في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل ، الا اذا كان هناك شخص آخر ترغبين فيه وتتحرقين على لقائه .

— لا لا . . . احلف لك انه لا .

ويرد عليها بنزق :

— لا تحلفي أبداً . . . ولا تورطي نفسك في اثم . . . ولا تحاولي النكران ، انه لا يجديك نفعاً . . . لست أنا ممن تخفى عنهم مثل هذه الامور . . . أصدقيني القول ، وثقي انني سأكون الى جانبك حتى النهاية .

وتأنس بعض الشيء بلهجته التي تنم عن الصدق ، ولكنها تظل صامتة مطرقة ترتجف من شدة الانفعال دون أن تحاول تبرير نفسها بكلمة واحدة . كأنه تقره على ما يقول .

ويعود فيقول لها :

— لم لم يزوجوك منه اذن ؟ .

— . . . .

— افقير هو ؟ ؟ .

وتظل مطرقة ودموعها تتساقط بغزارة وفمها مطبق .

ويتأملها مشفقاً ثم يقول :

— أو تبكين كثيراً هكذا من أجله ؟ .

وتتنهد من عمق ، ثم تزفر زفرة لم تستطع كتمانها .

ويقول لها بلهجة حنون :

— لعلك سمعت عنه خبراً سيئاً هـذه الليلة ؟

وتهز رأسها ايجاباً دون وعي منها . . . ودون أن تنظر اليه .

ويتذكر هو حديثاً دار بين الضيوف قبـل انصرافهم بقليل عن طلاب جامعيين قبض عليهم وهم يقومون بمظاهرة ضد الفرنسيين وأودعوا السجن ، ويقال انهم يعذبون فيه عذاباً منكراً .

ويتذكر كيف تلقت هي الخبر بشهقة عالية أثارت استغرابه ، ولفتت نظر الجميـع ، ثم بدا عليها وجوم وشرود ، ويسألها متلطفاً :

— لعله أحـد هؤلاء الطلاب الذين يعذبون الآن في السجن ؟ .

وكأنه قد فرغ صبرها ومقدرتها على ضبط اعصابهـا فتضع يديها على وجهها وتجهش بالبكاء بصوت عال .

فيتأكد أن غريمه واحـد منهم . وتلوح على ابتسامة مريرة لأنه استطاع أن يحزر ، ولأن حدسه جاء في محله .

ورغم هـــذه الحقيقة القاسية التي انجلت واضحة أمامه يظل هادئاً غير مضطرب ، كأن الأمر لا يعنيه في قليل أو كثير ، حتى بـدأ يعجب من نفسه أشد العجب ، ويـكاد ينكرها . . كيف استطاع أن يتلقى هـــذا الواقـع الفظيع بهـدوء وبرود لا يعهدها أبـداً في طبعه ؟ . . لاسيما في مثل هـــذه المواقف ، أي تغير طرأ عليـه فأحاله آخر لا عهد له به ؟ ؟ . .

ويتأملها وهي أمامه تبكي وتنشج ، وتبدو له كطفلة صغيرة ، حيرى مرتكبة ، مغلوبة على أمرها ، لاحول لها ولا طول .

ويحس أن شعوره نحوها بدأ يتحول بسرعة الى حنان وعطف ، ويود في صميمه لو يستطيع أن يهدهد حزنها فيأخذها في حضنه يمسح دموعها ، ويربت كتفها . ولكنه لم يجروء أبداً أن يمسها كأن قوة خفية تصده عنها.

ويظل جالساً أمامها حيران مـدة من الزمن لايدري أطالت أم قصرت . كان يستمع الى نشيجها المرير فيشعر كأن قلبه يتقطع عليهـا حسرة ولوعة . . ثم يقوم متثاقلاً دون أن يفوة بكلمة واحـدة ويخرج من الغرفة ويتركها وحدها على الوضع الذي هي فيه .

وتهدأ العاصفة شيئاً فشيئاً فيصمت الرعد ، وتنقطع المطر ، وتنقشع السحب عن سماء زرقاء فيها قمر يتهادى بين الغيوم . ويتنفس الصبح عن نهـار وضاح . وتستعيد هي هدؤها وتستوعب ماحدث لهـا كأنها كانت في غيبوبة ثم صحت لتوها ، فيكبر عليها الأمر ، ويتملكها خوف شديد وتسأل نفسها مرتاعة :

كيف استطاع هـــذا الماكر أن ينتزع منها هذا الاعتراف الخطير بسهولة ويسر ؟ ! . . لقـد اغتنم فرصة يأسها وانهيار أعصابها فكان له ما أراد . . .

الى م سينتهي أمرها ياترى ؟ . .

وراحت تصغي الى صوت خطواته وهو يتنقل بين غرف البيت ،والى صوت حركة متوالية في غرفـة الزينة المقابلة لغرفة النوم ، والى صرير أبواب الخزائن والادراج وهي تفتح وتغلق .

ماذا يعمل ياترى ؟ . .

ليت لديها ولو قليلاً من الشجاعة لمجابهته وسؤاله عما يفعل .

ثم يتناهى اليهاصوت خطواته على الدرج ، ثم تسمع صرير باب البيت الخارجي وهو يغلق بشدة ، وتتيقن أنه برح البيت . وتخرج من غرفتها وتسرع الى الشرفة وتطل منها فتلمحه وهو يركب سيارته وينطلق بها .

تساءلت :

الى أين ياترى ولم تشرق الشمس ؟ ؟ . .

لا شك أنه داهب الى أبيها ليخبره بكل ماحدث بينها ، فياهول ما ينتظرها ! ! . .

وتعود الى غرفتها مضطربة ، حزينة يائسة ، وترى في طريق عودتها على احدى المناضد رسالة تركها لها فتتناولها وتفتحها بسرعة وتبدأ تقرأ ، ثم تعيد ما تقرأ بدهشة واستغراب ، وتكاد لا تصدق ما تقرأه عيناها .

أحقاً ياترى مايقول ؟ ؟ . . انه الآن ماض الي مشروعه الذي كان يعمل فيه في القرية النائية . وسيظل ماحدث بينها هذه الليلة سراً مكتوماً حتى عن أبيها وزوجه ، لأنه يعرف تماماً ما سيلحقها من ضيم اذا عرفا حقيقة أمرها . تلك الحقيقة التي يراها هو حقاً مشروعاً لها ، ومن الظلم أن تحرم منه . وسيبقيها في بيته وتحت حمايته — أن أرادت — ريثما تدبر أمورها كما يحلولها ، لأنه لن تربطه بها بعد اليوم رابطة تجيز

له التدخل في شؤونها الخاصة . وسيعيد اليها حريتها ساعة ترغب وتريد ، وسيكون لها خير نصير .

ويختم رسالته بجملة بدت لها أول الأمر كلغز اذ يقول :

أنا رجل كهل . تستطيع امرأة مثلك أن تسعدني ، ولكنها لا تستطيع أبداً أن تشقيني ، ولذا فأنا أحمد الله الذي سخر لي ومضة برق خاطفة أضاءت لي حقيقة أمرك ، وكانت معواناً لي على كشف سرك الذي تخفينه عني وتشقين به ! . . وأحمديه أنت أيضاً لأنه أومضها في ضميري فانتهيت الى هـــذا القرار الذي ارتاحت اليه نفسي ، واطمأن قلبي ، ولن احيد عنه أبداً مهما قال الناس فيه .

بينما كانت هي تقرأ ، وتعيد ماتقرأ في دهشة واستغراب . كان هو ماضياً في طريقه ، تنهب سيارته الارض نهباً . وقد ربض خلف مقودها شامخ الرأس ، متعالياً ، راضي النفس ، يبـدو لعينيه كل شيء جميلاً ، ويشعر معتزاً بأن الغلبة كانت له أيضاً على المرأة في هـذه الليلة العاصفة بكل شيء ، كما لم تكن أبداً .

كوني حكيمة

سألت السيدة (س) صديقتها قائلة :

— كيف كانت سهرتكم ليلة عيد رأس السنة الجديدة ؟

لم تحدثيني عنها أبداً . . . أنا التي حرمت منها لأن عجوزاً من قريبات زوجي البعيدات لم تجد وقتاً تموت فيه انسب من تلك الليلة . لا أدري الى متى سنظل مقيدين بهذه التقاليد البالية وما فيها من مجاملة كاذبة ؟!..

— أؤكد لك أننا سنظل مقيدين بها مادمنا جبناء ! . . . أي كارثة كانت ستقع لو أنك وزوجك تجاهلتما عاداتنا وأتيتما الى تلك السهرة التي لانحظى بها الا مرة في كل سنة .

لقد افتقدنا كما كثيراً ، وكانت والله سهرة ممتعة حقاً . أقول ذلك رغم أني لم أرقص أبداً ، ولم أتزحزح من مكاني ، وكنت وزوجي أول المنصرفين منها .

وتحملق السيدة (س) بضيفتها مستغربة وتقول :

— ومع ذلك تقولين أنها كانت ممتعة ؟ ؟ . . . هذا لغز ياعزيزتي ... ولكن لا يصعب على من كانت مثلي حله . قولي لي ياشيطانة الى جانب

من كنت جالسة ، وانا سأحل اللغز فوراً . وترد عليها وهي تضحك :
ـ أخشى اذا قلت لك ذلك ان يزداد اللغز تعقيداً . كنت الى جانب رجل كهل ، ماعرفته الا تلك الليلة ، ولو رأيته لبدا لك سمجا ثقيلاً .
ـ اعترف انني عاجزة عن الحل ، فهاتي القصة بتمامها .
ـ كنت أعد نفسي لسهرة فريدة ممتعة استقبل بها العام الجديد ، وكل شيء كان يجري كما اشتهي تماماً ، كنت راضية كل الرضى عن ثوبي الجديد ، وعن تصفيف شعري ، وعن ثلة الاصدقاء التي اخترناها أنا وزوجي للسهر معنا ، وعن موقع مائدتنا الذي جاء مشرفاً على حلبة الرقص ، كما ارغب تماماً . ولكن صديقنا عزيز أفسد علي جمال ذلك كله حين جاء متأخراً وقد اصطحب معه رجلاً كهلاً قدمه الينا قائلاً :
ـ خالي سعيد بك . . جاء اليوم مصادفة من مزرعته فأحببت ان ادعوه الي السهرة معنا . هل تصدقون انه كان ناسياً ان الليلة عيد رأس السنة الجديدة هـــذا الذي كان الى أمـد قريب من رواد النوادي ، ومن المجلين في مثل هذه السهرات . ولكن المزرعة على مايبدو لي قـد شغلته عن كل شيء .
ويجيب الرجل بصوته الاجش :
ارجو الا افسدعلى الشباب سهرتهم . . . ماذنبي انا ؟ صديقكم اراد لكم ذلك . ويبتسم ابتسامة عريضة وهو يستمع الي عبارات المجاملة تنصب عليه من كل جانب . وكا زوجي اكثر المجاملين حماسة حين تخلي للضيف عن مكانه الذي كان الي جانبي تكريما له . ولم يخف علي ابدا انه اغتنمها فرصة ليجلس جانب سلوى في اقصي المائدة . وانت تعرفين سلوى !.

ولا اظنه يجهل ان في ذلك مايغيظني ويزعجني . فمن عيوبي التي لا انجح في التغلب عليها ابدا هو عـدم استطاعتي كبت عواطفي التي تبدو جلية على وجهي ، وكثيرا ماتسبب لي مآزق حرجة .

واتجاهل وجود الضيف الى جانبي . واظل صامتة اصوب الى زوجي نظرات تعبر عن غيظي . وكأنني اقول له :

أتتركني الى جانب هـذا العجوز السمج ؟ . ولا بد لي من مجاملته طول السهرة بينما تذهب انت لتلهو مع سلوى كيفما تشاء .

وتعزف الموسيقى ، ويجيء زوجي يدعوني الى الرقص كـأنه يريد ان يتلافى ماوقع . وارفض معتذرة بالعذر التقليدي : ان قدمي تؤلمني من ضيق حذائي الجديد . ويتقبل العذر فورا دون اي اعتراض مما زاد في غيظي ، وينصرف من امامي غير مبال بي ، كـأنه فرح عندما تخلص من واجب ثقيل عليه كان يتحتم عليه اداؤه . ويعود فيدعو سلوى ، وراحا يرقصان وكـأنهما منسجمين تماما ، ورحت وكـأنني اتمزق غيظا لاسيما حين كنت يضمها الى صدره بحنان وهي تصوب الى عينيه نظرات غنج وافتتان . . . وتحين مني التفاتة الى المائـدة التي كنت احتل اول كرسي عليها فاجدها خالية لقد قام الجميع قصـــون وبقيت وحدي مع الضيف الكهل . وقد لاحظت انه كان يراقب حركاتي بفضول ، فشعرت بشيء من الارتباك ، ولم اجد مناصا من التحدث اليه ولو ببضع كلمات فاللياقـة تتطلب مني ذلك فهو ضيف مائدتنا على كل حال فقلت له :

— تحلو لي احيانا الفرجة على الرقص اكثر من المشاركة فيه .

ويبتسم وهو يحتسي شرابه ابتسامة غامضة لا افهم منها شيئا . كنت اتوقع ان يقرني على رأيي هـذا كما تقضي بذلك المجاملة ولـكنه لم يفعل . ورحت اتفرس في وجهه الذي بدأت آلفه اكـثر من ذي قبل ، فأرى عينين واسعتين تنبعث منها نظرات جريئة تـدل على قوة شخصه ، وأنفاً اقنى يضفي عليه شيئاً من الكبرياء ، وشعرات بيضـــاء منتثرة على فوديه تزيد سمرته دكنة ، انيق في غير تـكلف ، وضع كأسه على المائدة بتؤدة واشعل لفافة ثم اقترب مني لأسمع كلامه الخافت رغم صخب الموسيقى وقال :

— انا على عـكسك ياسيدتي تماما . لا اطيق الفرجة ابدا. وقد هجرت هذه السهرات رغم ولعي بها وانزويت في مزرعتي منذ تنبهت ذات ليلة فوجدتني لا اصلح الا متفرجا ! . . فضحكت وقد عجبني حديثه وقلت له:

— لعلك كنت واهما . قال :

— لم اكن واهما مـع الاسـف ! . . كان هو الواقـع ! . . دعوت الى الرقص ليلتئذ سيدة كنت معجبا بها فاذا هي تعتذر لي كما اعتذرت انت لزوجك قبل قليل . وانا اعرف تماما ان الحذاء الضيق لا يعيق امرأة عن الرقص مـع رجل ترغب فيه ، فانصرفت عنها مقهورا . ودعوت اخرى وكانت كريمة لبت الدعوة وياليتهـا لم تلبها ! . . كانت ترقص معي ولـكن ذهنها كان منصرفا الى غيري ، وكانت عيناها تتابعانه بلهفة ، ولست ممن يخفى عليهم مثل ذلك ! . . .

فما ان انتهت الرقصة حتى خرجت من النادي وانا مصمم على الا اعود اليه ابدا . لقد استسلمت في الوقت المناسـب . الا ترين ان هذه ميزة ؟ . .

قلت : ضاحكة .

— لاشك ابدا انهــا ميزة عظيمة فيها اذا اتت في اوانها .

قال :

— قلائل جدا الذين يعرفــون أوانها ويرضخون للواقــع ويقدورن الوقت المناسب للانسحــاب . اما أنا فمنذ ذلك الحين غيرت نمط حياتي ، وسرت على نمط جديد يتفق مــع تقدمي في العمر . لقد اعتدت ان اكون كذلك دائما ابدا .. .

كنت استمع اليه وانا شاردة الذهن ، اختلس بين حين وآخر نظرة الي حلبة الرقص لاراقب زوجي . فقد خيل الي انه كان يحاول ان يبتعد عن مكاني ما امكنه ليرقص مع سلوى كما يحلوله . فكنت امــــط رقبتي لاراقبها . ولاحظ الرجل الكهل ذلك فقال لي :

— اتسمحين باسداء نصيحة اليك قد تفيدين منها .

قلـــــت:

— اشكرك مادمت تسدى النصائح هكذا لوجه الله .

قال :

— بل اسديها الى كل جميل يتجلى فيه ابداع الله .

فابتسمت له وقلت :

— اني مصغية اليك ! .

قال وهو يشير الي باصبعه بلهجة قاطعة :

— اما ان ترقصي ، واما ان تــــديري ظهرك الي حلبة الرقص فلاتبالي

ولاتهتمي بما يحدث فيها ابدا .

قلت بلهجة قاسية :

ـــ ومن قال لك انني ابالي اواهتم ؟ ؟

قـــال :

ـــ معذرة اذا اسأت اليك . ورفع كأسه واشار اليها قائلا :

ـ قاتلها الله . تجعلني احيانا اتجاوز حدودي، واتداخل فيما لا يعنيني .
واشعر ان لهجتي كانت قاسيـة اكثر مما ينبغي فقلت له مبتسمة لا تلافى مابدر مني :

ـ اريد ان اعرف فقط ماالذي جعلك تعتقد انني مهتمة بما يجري في حلبة الرقص؟؟ هل يبدو علي شيء من هذا!؟

قال وقد لمعت في عينيه نظرة خبيثة :

ـــ لقد افنيت عمري حول امثال هذه الموائد ، فمـا يخفى علي شيء ممـا يجري عليها .

وينفث دخان سجارته ويتأمله شارداً كأنه يتأمل ماضيه المزدحم بامثال هذه الصور .

وادرك انني حيال رجل ذكي قارح ، كثير التجارب يستطيع ان يدرك بفراسته كل مايدور في خاطري كأنه يقرأه في كتاب . فمـا يجدي معه نكران او تمويه ، وآثرت ان ادير الحديث الى مزاح فقلت :

ـــ كأنك والله منجم او عراف تقرأ مايوسوس في الصدور .

قال :

ـــ وما المنجم او العراف ياسيدتي الا رجل دقيق الملاحظة كثير

التجرب وقد اكسبه ذلك كله فراسة صادقة ومعرفة بما يدور في عقول الناس وتأكدي انه لايختلف عن غيره الا قليلاً . فالانسان هو الانسان بغرائزه وطباعه مهما اوغل في المدنية فما تختلف امرأة هنا - في مثل موقفك هذا - عن اخرى في مجاهل افريقيا او متاهات الاسكيمو ، سوى ان هذه اقدر من تلك على كظم غيظها وتمويه غيرتها، تكز على اسنانها ، او تمزق منديلها باصابعها تحت المائدة ، بينما تلك تعول او تضرب خديها او تشد شعرها . وكل واحدة منهما لواتيح لها ان تنشب اظفارها في عنق غريمتها لما ترددت أبداً .

قلت :

— لقد خوفتني والله من نفسي .

قال :

- الحقيقة مخيفة دائماً وبشعة ، ولذا نحاول أن نغلفها بما يسترها أو نلونها بالوان نخدع بها أنفسنا .

قلت :

- لما لم تنصحني مثلاً أن أرقص مع من انسجم معه حتى أثير غيرة زوجي فانتقم لنفسي عوضاً من أن أدير ظهري الى حلبة الرقص وأترك له المجال يجول فيه كيفما يشاء ؟

قال :

- اياك ان تفعليها . . . انها طريقة قديمة عقيمة وقد ثبت فشلها ، واذا اتبعتها فسيظل كل واحد منكما سائراً في طريقه ، ولا بد ان يأتي يوم تبعد فيه الشقة بينكما وتجدان انكما تعيشان في جو من الخداع ، والغش ، واللامبالاة وهذا شر مايبتلى به زوجان .

قلت :

ـ يبدو لي كلامك جوهرياً . سأعمل بنصيحتك . وادير ظهري الى حلبة الرقص واصبح مواجهة له فيبتسم لي بحنان اب ويقول :

ـحسناًفعلت .حاولي دائماً الا تكوني كأمنية تحققت ولم تعد شيئاً. ان الحب ياسيدتي لا يتعدى قضية العرض والطلب . أي كلما ازداد العرض قل الطلب .

قلت :

ـهذا صحيح والله . واظل صامتة افكر.فقال مبتسماً :

ـ بماذا تفكرين؟ ألم تعجبك الخطة ؟ .

قلت :

ـ بل اعجبتني كثيراً . ولكنني اسائل نفسي كيف تورطت بالحديث معك ــ ولما يمض على تعارفنا الا ساعات .. فبحت لك بأمور أنا احرص ما اكون على كتمانها حتى عن اقرب الناس الي ؟ .

فقهقه ضاحكا وقال :

ـاعجبتني صراحتك .. لاتقضي على نفسك ؛ ولا تفرطي في لومها . انت لم تبوحي لي بشيء ، انما أنا اكتشفت ذلك كله . الم أقل لك انني افنيت عمري حول هذه الموائد فما يفوتني شيء مما يدور حولها . وتحين مني التفاتة لا شعورية الى حلبه الرقص فاذا هو يقول لي متململاً ويشد على الكلمات :

ـ لا تفعلي ذلك أبداً . اسمعي من مجرب مثلي .ستفسدين كل شيء .

قلت :

ـ ان ماتطلبه مني هو فوق طاقتي .

قال :

ـ اعطيك بعض الحق . . . ان نمط هـذه الحياة العصرية الجديد الذي نعيشه اليوم معقد الى حـد بعيد . وهو دخيل علينا كما تعلمين . منذ سنوات قليلة فقط بدأنا نمارس الرقص ، ونحتفي بمثـل هـــذه الاعياد . فلا تحسبي هذا سهلاً . اننــا نحتاج الى امد طويل ريثما يتأصل فينا ، وعندئذ نستطيع ان نعيشه بعفوية وسليقة ، وحتى نصل الى ذلك الحين نحتاج الى كثير من الصبر والسيطرة على الاعصاب واللباقة في التصرف . وهذا كله يتطلب تمريناً ودراية فنحن لم نعهد عليه امهاتنا وجداتنا ، وانت لاتزالين صغيرة ولا بد أن تحذقي ذلك كله يوما ما ، ولـكن بعد ان تمري بتجارب قاسية ، ولذا احببت ان اختصر لك السبل.

ولـكن اسمحي لي الآن بسؤال صغير : أنا لا أستطيع ان افهم ان واحدة مثلك لها وجه يوحي بالربيع وازهاره وصفائه ، كيف تهتم أو بالاحرى تغار من تلك التي تشبه حقلا اصفر جافا بعد ان لملم الحصادون خيراته ؟ ؟ . .

فضحكت وقلت له :

ـ هـــذا احلى مديح سمعته في حياتي . لا شك انك تستمد تشابيهك الحلوة هذه من جمال مزرعتك التي هي رائعة حتماً .

قال وقد لمعت في عينيه نظرته الخبيثة :

ـ قولي الصدق . . أيهما اعجبك أكثر مديحي لك ؟ أم ذمي لفريمتك ؟ . .

قلت :

ـ أف ! . . ما أصعب الحديث مع إنسان ذكي مثلك . ما يستطيع محدثه ان يخفي عنه شيئاً يخطر بباله . ان هذا يبعث على الارتباك .

وضحك وقال :

ـ واحدة بواحدة ، ان في قولك هـــذا اجمل إطراء سمعته في حياتي .

قلت :

ـ والى متى سنتبادل المدائح هـــذه الليلة ؟ ؟ ونقهقه ضاحكين . . شعرت حينئذ بيد زوجي تلقى على كتفي ، وسمعت صوته يقول لي :

ـ اضحكونا معكم .

قلت بلا مبالاة :

ـ ياليت ذلك ممكن ! .

وينظر الي مستغربا ويتابع طريقه الى مكانه الأول . واظل مكاني اثرثر مع جاري الكهل الذي بدا لي انه جذاب ، ويبدو علينا انسجام واضح . وأرى ان زوجي بدأ يراقبنا من بعيد . وإذا الموسيقى تعزف الرقصة المفضلة لدي ، ويعود زوجي ويقول لي بلهجة عاتبة :

ـ حتى هذه لاترغبين في رقصها أيضاً ؟ وابتسم له ابتسامة هادئة

كعادتي عندما أكون سعيدة راضية وأقول له :

ـ أفضل البقاء هنا . ارقصها مع غيري . فراح يتفرس في وجهي كأنه ينكر منه شيئاً ثم ينصرف ليدعو غيري . واعود الى الثرثرة مع جاري الكهل واعمل بنصيحته فلا التفت الى حلبة الرقص أبداً . وتنتهي الرقصة ، وتصمت الموسيقى ، وإذا زوجي يعود لي والغيظ باد في عينيه ، ويقول لي بلهجة لا تسمح بالجدل أبداً :

ـ قومي . لنعد الى البيت ، انني تعب جداً . وقبل ان يسمع جوابي بدأ يودع الرفاق الذين راحوا يعترضون على انصرافنا باكراً ولكنهم لم يستطيعوا ان يثنوه عن عزمه أبداً . ويغتنم الرجل الكهل فرصة ويقول لي :

ـ ما أسرع مانجحت خطتنا . ويهمس وهو يودعني : لا تشتطي كثيراً ، كوني حكيمة .

بوران

قال كبير الوزراء وهو يتحدث الى قهرمانة قصره العجوز :

ـ اسمعي ياهـــذه . سأكل اليك من اهمني امره ، وعهدي بك الدراية والفطنة .

اجابت القهرمانة : أنا عند حسن ظنك بي يامولاي .

قال : يسؤني جداً أن تسترق ابنتي السمع الى كل ما يدور في مجلسي هذا من أغان وأحاديث ، ولقد خيل الي البارحة اني سمعتها وهي تضحك من وراء الستور عندما روى أحد الظرفاء نكته فاحشة ، ما أحب لها سماعها ، ولكم نهيتها فلم تنته ولم ترعو . وقد لايخلو مجلسي من حديث أمثال هؤلاء الظرفاء ، او مما يقوله شعراء ما جنون ، او جوار خليعات ، مما اربأبها ان تسمعه .

قالت القهرمانة : ليطمئن مولاي بالا ، فوالله ماحوت بغداد فتاة تضاهي سيدتي ابنتك في رجاحة العقل ، وسمو الخلق ، وان كانت تهوى سماع ما يدور في مجلسك هذا فماذاك الا لولعها بالأدب والشعر ، وشغفها بالألحان والغناء .

قال الوزير : مهما يكن الامر، لقد قررت اسكانها في قصر قريب مني ، يطل من جهة على ذلك الزقاق الضيق الذي يؤدي الى دار الخلافة ، ويشرف من جهة أخرى على دجلة ، وان لفيه بستاناً صغيراً ستجد فيه سلوتها ان ضاقت بها حجرات الغرفة ولتأخذ معها ماشاءت من قصري هذا من التحف ، والالطاف والنفائس ، ولتصاحب معها من شاءت من الجواري والقيان والعبيد . وقد امرت القيم على صندوقي ان يصرف لها ماشاءت من المال . فكوني انت حارسها الأمين وزيني لها اهـذا الامر ، وهيئيه لهـا بحكمتك ، وقولي لها اني ما اردت بذلك الا الخير والراحة لها . فأنت تعلمين انها حبيبة الي ، عزيزة علي . وسأعرج على بيتها كلما غدوت الى دار الخلافة او انصرفت منها .قالت القهرمانة : ليطب مولاي نفساً . وليعتمد علي فيما وكل الي .

حاولت العجوز كثيراً لتجعل الصبية راضية عن مسكنها الجديد ، وجهدت في سبيل ذلك ما وسعها الجهد ، فلم تفلح أبداً ، فليس من شيء يعدل في نظر الصبية مجلس ابيها الذي كانت تنتظر موعده متلهفة لسماع الشعر يرويه ناظموه ، وللألحان يغنيها واضعوها ، وللنكات يتندر بهـا مؤلفوها او ناقلوها . حتى لكأنها ، وقد حرمت من ذلك كله ، قـد اخرجت من جنات النعيم .

قالت القهرمانة ذات صباح ،وقدرأت ان السأموالملل قد بدآ ينالان من صبيتها :

– ما رأيك في نزهـة على ضفاف دجلة تروحين عن نفسك بعض الشيء برؤية الزهر والنهر .

قالت الصبية : اني لمدركة ما يدور في نفسك ياخالة فأنت مابرحت تودين ان تهيىء لي ما اجد فيه العزاء عما فاتني في قصر ابي . ولكن ثقي انك لن تبلغي ماتريدين ابدا .

فحو قلت العجوز واسترجعت . ثم فكرت وامعنت في التفكير وعادت تقول : اسمعي يابنيتي، جعلني الله فداءك ، لقد ارقت بالامس ارقا شديدا حتى كاد يمضي الهزيع الاخير من الليل ولقد سمعت جلبة وضجة في هذا الزقاق الضيق ، فنظرت من الشرفة فرأيت بعض الناس يمرون وعليهم سيماء الخير والنعمة فقلت في نفسي لاشك انهم من ندمان الخليفة آثروا اختصار الطريق فمروا من هنا وخطرلي امر لعله يروق لك.

قالت : هات ما عندك .

قالت العجوز: ماعلينا لو اتينا بزنبيل كبير ففرشناه بالديباج والدمقس، ثم ربطناه بأربعة حبال ثخينـــة ، فاذا كان الهزيع الاخير من الشرفة ، وانا ضامنة لك انه لورآه احد هؤلاء الظرفاء ، او الندماء ، لقعد فيه فرفعناه الينا ،وفيهم ممن لاتحلمين برؤيته في مجلس ابيك ، فاذا اعجبنا به سامرناه حتى الصباح ، ثم اخذنا عليه العهود والمواثيق ليكتم امرنا ، وان لم نعجب به ضحكنا منه واخلينا سبيله .

فانفرجت اساريرالصبية ،وقالت للعجوز :

ـ يالها من حيلة تفتق عنها ذكاؤك الفارط .

ولكن اما من خطر علينا ؟؟

قالت العجوز : انا اكفيك كل خطر .

وما كان آخر الليل حتى كان الزنبيل المفروش بالديباج قد تدلى من من الشرفة وقد شدت اليه اربعة حبال، وقد وقفت اربع جوار يرقبنه من على . وكان الخليفة قد استدعى في تلك الليلة احد ندمانه المغنين ، ثم عرض للخليفة ماجعله ينصرف عنه لبعض شأنه فجلس ينتظر حتى انقضى النصف الاول من الليل ، فآثر الانصراف الى داره ، وسلـــك الزقاق فاذا هو يرى زنبيلا معلقا بأربعة حبال ، وقد شدت الى الشرفة ، فقال في نفسه:

ان لهذا لسببا ، وان له سرا .

واقام مدة يتروى ويفكر ثم قال: والله لأتجاسر ، ولأجلس فيه كائنا ما كان . . . .

ولما جلس في الزنبيل احس به يرتفع ، حتى انتهى الى الشرفة واذا بأربع جوار يقلن له . انزل على الرحب والسعة . فنزل فاذا دار نظيفة حسنة التنظيم والترتيب . ثم ادخـل مجلسا فيه من ضروب التحف ، وصنوف النفائس وما لم ير مثله الا في دار الخلافة فتملكته الحيرة والدهشة. واذا هو يشعر بجلبة وضجة .

ويرى ستورا ترفع في ناحية من نواحي المجلس ، ووصائف يتسابقن في ايدي بعضهن الشمع ، وبعضهن المجامر يبخرن منها العود والند، تتوسطهن صبية كأنها تمثال من عاج تتهادى بينهن كالقمر بين النجوم بقد يزرى بالغصون. فلم يتمالك عند رؤيتها ان ينهض فقالت ـ مرحبابك من زائر اتى وليست

تلك عادته .

ورفعت مجلسه عن الموضـــع الذي كان فيه ، واخذت ترحب به وتجامله. ثم سألته عن بلده ، وصناعته . ومن اي الناس. هو فأحب ان يضالها فقال : انه من بغـداد ، وهو تاجر ومن امناء الناس وأوساطهم . ثم سألته عن روايته للشعر ومعرفته بأخبار العرب ، فقال لها :

ـ جعلت فداك ان للداخل دهشة . وبي انقباض . ولكن تبتدئين انت ، فالشعر يأتي بالمذاكرة .

قالت : لعمري لقد صدقت . وراحت تروى له قصائد من عيون الشعر وتحدثه بأحلى النوادر وأعجبها فدله ذلك على انها اديبة ذواقة . الى ان قالت : له ارجو ان يكون قد ذهب بعض ما كان بك من الحصر والانقباض والحشمة . فهات ماعندك .

فراح بدوره ينشدها اروع ماحفـظ من الشعر ، واحسن ماعنده من نوادر القصص وهي مصغية اليه ، مستحسنة لكل مايأتي به الى ان قالت:

ـ ما توهمت ابدا ان في عوام التجار ، وابناء السوقة واحدا مثلك فان ماسمعته منك لما يتحدث به عند خليفة اوامير .

فقال امعانا في تضليلها : جعلت فداك ان لي صديقا ينادم احـــد الامراء . وهو حسن المعرفـــة ، كثير الحفظ فاذا تخلف عن صاحبه ذهبت اليه فلربما اخبرني من هذه الاحاديث شيئا فحفظته . قالت : يجب ان يكون هذا فلعمري لقد حفظت فأحسنت الحفظ. ثم قالت : جارية هات ما عندك .

فقدم اليهما افخر الطعام والشراب في احسن آنية . فاصابا منه ماشاء . ولما انتهيا منه.

قالت : ـ اني اراك كاملا ، وانك في الرجال لفاضل ، وانك لوضيء الوجه ، مليح الشكل ، بارع الادب وما ينقصك الا شيء واحد .

فقال : وما هو ياسيدتي دفع الله الاسواء عنك قالت :لو كنت تحرك بعض الاوتار ،وتترنم ببعض الاشعار .

وخاف ان غنى ان يفتضح امره ، فقال : والله قديما اشتهيته . . وطالما كلفت به وحرصت عليه فلم ارزقه . وكلما تقدمت في طلبه كنت فيه ابعد حتى أعرضت عنه. وان في قلبي من ذلك لحرقة ،واني لمستهتر به مائل اليه . . وما اكره ان اسمع في مجلسي هذا من جيده شيئاً لتكمل ليلتي ، ويطيب عيشي . . .

قالت : كأنك قد عرضت بنا .

قال : لا والله ماهو تعريض وما هو الا تصريح .

فقالت :ياجارية...العود. فما ان جسته حتى ظن ان الدار قد سارت بمن فيها . ثم أخذت تغني بعض الحانه وتقول له :

كم ابدع فلان بهذا اللحن . . . وتسمي اسمه .

فيقول لها : او هكذا اوتي فلان من الحذق ؟.. فتقول :

نعم واكثر من ذلك .

ومازالا على حالهما تلك حتى لاح الفجر . فجاءت العجوز وقالت: اي بنية ان الوقت قد حضر .فاذا شئت فانهضي ، فلما سمع مقالها نهض .

فقالت :عزمت؟قال: أي والله .

قالت : تصحبك السلامة . عليك ان تستر ما كنا فيه ، فان المجالس بالامانـــــة .

وأجاب : جعلت فداك . واحتاج الى وصية ؟؟.. ثم ودعها، وودعته وفتح له باب في ناحية على الدار الى طريق مختصرة وبادر الى بيته . وظل بعدها ثلاث ليال يوافيها الى مجلسها هذا ،ويخلف موعده مع الخليفة معرضا نفسه لغضبه وقصاصه . وفي الليلة الثالثة قالت له عندما رأته :

ـ اضيفنا ؟ ؟. .

قال: نعم . . قالت مازحة : اوجعلتها دار مقام ؟ .

قال: جعلت فداك حق الضيافة ثلاثة ايام فاذا عدت بعدها .

فانت في حل من دمي .

قالت : والله لقد أتيت بحجة .

ثم جلسا وأخذا فيما كانا فيه من الانشاد والحديث والغناء الى ان حان الوقت ، وجاءت العجوز . فقال لها وهو منصرف : اتأذنين ذكر شيء خطر ببالي؟ قالت قل: مابدا لك .

قال : اني أراك ممن يعجب بالغناء والاناشيد أشد العجب . ولي ابن عم هو أحسن مني وجهاً ، واظرف قدا ، وأكثر أدباً واغزر معرفة . وأنا تلميذ من تلاميذه وحسنة من حسناته ، فاذا سمحت اتيتك به غداً قالت : طفيلي ومقترح . . . أما كفاك ان سمحنا لك بثلاث ليال حتى طمعت ان تعود ومعك آخر .

فقال لها : جعلت فداك ذكرته لتكوني انت المحكمة فاذا اذنت

وأردت ، وإلا فلا اذكره .

فقالت : إذا كان ابن عمك على ماوصفت فأتنا به غداً. فقال : سمعاً وطاعة .

ثم ودعها وانصرف الى منزله . وما كاد يستقر به المقام حتى فاجأته رسل الخليفة ومعهم الجند فسحبوه بحالته تلك الى دار الخلافة . فاذا الخليفة جالس على كرسي وسطاالدار مغتاظاً حرداً. فلما رآه قال له :

ـ اخروجا عن الطاعة ، واخلافاً للموعد ؟ ؟ . .

فقال : لا والله يا أمير المؤمنين . انه كانت لي قصة احتاج فيها الى الخلوة .

فأوما الخليفة الى من كان واقفاً ، فتنحوا ، فقال له :

ـ كان من خبري كذا كذا . . والله لايمكني ياأمير المؤمنين ، ان اصف لك من أي احوالها أعجب ؟ أمن جمالها ؟ أم من ذكائها ؟ أم من حسن أدبهـا ؟ أم من جودة ضبطها للغريب ؟ أم من اقتدارها على النحو ، ومعرفتها بأوزان الشعر ؟ أم من ضبطها الألحان وحسن ضربها على الاوتار ؟ ولمـا وصل الى هنا قاطعة الخليفة قائلاً :ويحك ياهذا . . كيف لي بمشاهدة ماشاهدت ؟ ؟ . .

فقال : الله قد فكرت في قصتها ، وعلمت انك ستطالبني بذلك فاحتلت الأمر وذكرت لها ان لي ابن عم ، واسهبت في تعداد فضائله ومقدرته على الغناء حتى أذنت بمجالسته ، وسنصير اليها الليلة إذا شئت .

فقال الخليفة : وكيف لا أشاء . ومضى النهار . فلما ان مضى من

الليل هداة جعل الخليفة يقول :

أما حان الميعاد ؟ . . وكان القلق بادياً عليه الى ان جاء الوقت وسارا اليها .

وقال المغني للخليفة وهما في طريقهما اليها :

- يجب ان تظهر بري بحضرتها واكرامي ، وتطرح نخوة الخلافة ، وتجبر الملك . بل كن وكأنك تبع لي .

والخليفة يقول : نعم .. او احتاج ان توصيني ؟.

ثم قال : ويحك يا هذا فاذا قالت لي غن فما انا صانع ؟ .

فضحك المغني وقال : عندما نصل الى غنائك سأكفيه أنا .

ولما وصل الى الزقاق الضيق رأيا زنبيلين معلقين . فقعد كل واحد في زنبيل . ثم سارا الى الشرفة ، وانتهيا الى المجلس . فاخذ الخليفة يتأمل الفرش ، والدار ، والزي ، ويتعجب كثيراً ، ولما اقبلت الصبية بين جواريها بهت من حسنها ، فقالت حيا الله ضيفنا ،وابن عمه .ولكن ما انصفت ابن عمك ، حيث اجلسته دونك فهو جديد ، وانت صرت من اهل البيت .

فنهض الخليفة حتى صار في صدر المجلس .

ثم اقبلت عليه تؤانسه، وتناشده الشعر ، وتمازحه وهو يأخذ معها في كل فن ، ويفحمها . ثم قالت للمغني : ان ابن عمك فوق ما وصفت وها هو من عوام التجار ايضاً ؟

قال : نعم نحن لا نعرف الا التجارة .

قالت : وانكما لغريبان فيها .

ولما احضر الشراب . قالت للمغني : موعدك .

قال : انه لفاعل ، ولكن حتي نسمع شيئاً .

فأخذت العود وغنت بعض الحانه . واخذ الخليفة في الشراب ولما ولما نال منه كفايته ، التفت الى المغني ونظر اليه كما ينظر الاسد الى فريسته ثم قال له : غن لحنك الفلاني .

فقال:لبيك ياامير المؤمنين. فعرفت انه الخليفة فما ارتبكت ، ولا اضطربت بل انكفأت بأدب وجلست خلف .كلة كانت مضروبة هناك .

ثم قال الخليفة للمغني : سل من رب الدار ؟ فسأل العجوز فعرف انها للوزير الكبير .وان الصبية ابنته.ولما لاح الفجر عادا الى دار الخلافة وقال الخليفة للمغني : اكتم هذا الامر ولا تتفوه به ابدا .

ولما كان الصباح وحضر الوزير الى دار الخلافة . بادره الخليفة قائلا : الك بنت ؟ قال : نعم يامولاي .

فقال : اني احطبها اليك .

قال الوزير وهو يكاد يطير فرحاً :

ـهي جاريتك يا مولاي .

قال الخليفة :

ـوقدامهرتها ثلاثين الف دينار .. فاذا صار المال اليك فاحملها الينا .

لقد كان هذا الخليفة العتيد هو المأمون .

وكانت الصبية المغامرة هي بوران بنت الوزير الخطير الحسن بن

سهل . وهي التي اصبحت فيما بعد زوج المأمون ، ومن احب نسائه اا ه.

اما صاحبنا المغني فاسحاق بن ابراهيم الموصلي ، الذي طبقت شهرته الآفاق في تلك الاحقاب ، والذي نقل عنه انه قال :

رأيت كثيراً من الناس ، من اشراف ، وأمراء ، وادباء . فلم أر رجلا يعدل المأمون ولا امرأة تفي ببوران .

الفهرس

